

نور محمد باستان

بیر و جهان

روایت



0098385



مزار آباد

Bibliotheca Alexandrina



دمشق - أوتوستراد المرة

هاتف

٢٤٤١٢٦ - ٢٤٣٩٥١ - ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان الرقي

تلاسداز

TLASDAR

ربيع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

بی بی و جان

غی دومو یاسان

بی بی جهان

روایت

نزار اباظتہ بول کواتلان

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

GUY DE MAUPASSANT

PIERRE ET JEAN





صاح الأب رولاند فجأة :

— زفت !

وكان بقي ساكناً ربع ساعة لا يتحرك ، عيناه مثبتتان على الماء ، وهو يرفع من حين لآخر ، وبحركة خفيفة جداً خيطه المتدلي في عمق البحر . واستفاقت السيدة رولاند التي كانت تغفو خلف السفينة بجانب السيدة روزميلي المدعوة لحفلة الصيد هذه ، استفاقت واستدارت برأسها إلى زوجها قائلة :

— ما بك يا جيروم !

فأجاب الرجل الغاضب :

— لم تعد الحال على ما يرام ، لم أصطد شيئاً منذ الظهر ، لا بد من الصيد مع الرجال ، لأن النساء يؤخرن عن موعد السفينة .

وشرع ولدا رولاند بيير وجان يضحكان معاً وهما على جانبي السفينة، وكان مع كليهما خيط صيد لفه على إصبعه. وقال جان:

— ما بالك لا تتلطف مع ضيفتنا يا أبت!

فاضطرب السيد رولاند واعتذر قائلاً:

أستميحك عذراً يا سيدة روزميلي، فأنا هكدا، أدعو السيدات، لأنني أحب أن أكون معهن، ثم حييا أشعر بالماء من تحتي لأفكر إلا بالسماك.

واستيقظت السيدة رولاند تماماً، وجعلت تشاهد بهيئة حانية الآفاق الممتدة للجروف والبحر، وتتمت تقول:

— ومع ذلك فلديكم صيد وافر.

إلاً أن زوجها هز رأسه قائلاً:

— لا.

وألقي في الوقت نفسه نظرة راضية على السلة، حيث السمكات التي صادها الرجال الثلاثة ما زالت تضطرب اضطراباً خفيفاً، فيصدر صوت خافت من حراشفها اللزجة وزعانفها التي ترفعها بجهد عاجز لئن، وهي تتأهب في الهوء للقاتل. وأمنسك الأب رولاند بالسلة بين ركبتيه، وأمالها، وأسأل موج السمكات الفضية ليرى عمقها ويشاهد اضطرابها عند

احتضارها الذي بدا أشدَّ وأقوى، وليشمَّ الرائحة الواخزة المنبعثة من أحسادها، رائحة زنبخة لصيد طازج تنبعث من بطن السلة المملوءة. وشمها الصياد العجوز بحماس، كما تُشم الورود. وأعلن يقول:

— يا الله! إنها طازجة.

ثم تابع يسأل:

— كم اصطدت أنت أيها الطبيب؟

فأجاب بيير ابنه الأكبر، وهو رجل في الثلاثين من عمره، ذو سالف أسود مقصوص كسوالف القصاة وقد حلق ذقنه وشاربيه:

— أوه، غير كثير، ثلاثاً أو أربعاً.

واستدار الأب نحو ابنه الثاني وقال:

— وأنت يا جان؟

فابتسم جان الولد الضخم الأشقر ذو اللحية الكثيفة، وهو الأصغر، وتمتم يقول:

— مثل بيير تقريباً، أربعاً أو خمساً.

وهكذا كان الولدان في كل مرة يكذبان الكذبة ذاتها التي تسر الأب رولاند.

ولف الأب خيطه على المجداف، وشبك ذراعيه على صدره وأعلن:

— لن أحاول بعد اليوم أن أخطأ بعد الظهر، فعند الساعة العاشرة ينتهي الصيد، وحينئذ تعزف هذه الأسماك اللعيمة عن التقام الطعام، وتقضل النوم في الشمس.

ثم نظر الرجل إلى البحر حوله بعين المالك الراضي.

كان السيد رولاند يشتغل من قبل صائغاً في باريس وبسبب حبه غير المحدود للملاحة والصيد، انتزع نفسه من دكانه مكتفياً بما تحصل لديه من مال، وعاش حياة متواضعة من إيراداته.

مضى إلى ميناء الهافر واشترى مركباً وأصبح ملاحاً هاوياً. أما ابنه بيير وجان، فبقيا في باريس، ليتابعا دراستهما، وكانا يأتيان في العطلة من حين لآخر، فيشاركان أباهما في متعته.

وشعر بيير — وكان يكبر أخاه بخمس سنوات — بعد انتهائه من الدراسة الثانوية بميل متتابعة إلى مهن مختلفة، فجزّب منها ست مهن، واحدة بعد الأخرى ونفر منها كلها بسرعة، واندفع في آمال جديدة. وجذبه الطب في آخر المطاف فشرع يعمل بحماس، وتخرج طبيباً بعد دراسات قصيرة كافية، وبعدما حصل على إجازات من الوزير خولته اجتياز المراحل المطلوبة.

كان متهجاً، ذكياً، متلون المزاج، صلباً، مملوءاً بالخيال وبالأفكار

الفلسفية ، وكان جان أشقر بمقدار ما كان أخوه أسمر ، هادئاً بمقدار ما كان أخوه منفعلاً ، حليماً بمقدار ما كان أخوه حقوداً . درس القانون دوغما عثراً ونال الاجازة فيه في الوقت الذي حصل بيير فيه على إجازة الطب .

كان كلا الاثنين إذن يستجم مع أسرته ، وكان كلاهما يفكر أن يسكن في ميناء المهاجر إن مكنته الظروف المناسبة . ولكن حسداً غامضاً هبط عليهما يشبه الغيرة الغامضة التي تنمو بشكل خفي بين الإخوة أو الأخوات وتبقى حتى سن النضوج ، ثم تتفجر بمناسبة زواج أحدهم أو عند سعادة تهبط عليه . وأيقظت هذه الغيرة فيهما بغضاء الأخوة غير المؤذية . صحيح أنهما كانا يتبادلان الحب ، إلا أنهما كانا كذلك يترصبان كل منهما بالآخر . كان بيير في الخامسة من عمره عندما ولد جان ، فجعل ينظر إليه بعدوانية الحيوان الصغير المدلل ، إلى هذا الحيوان الصغير الآخر ، الذي ظهر فجأة بين ذراعي أمه وأبيه وهما يلعبانه ويحبانه .

وكان حان منذ طفولته مثالاً للرقة والطيبة والأخلاق المتزنة ، في حين صار بيير يغضب كلما سمع من حوله بمدحون هذا الولد الضخم مدحاً لا ينتهي ، بدت له رفته رخوة ، وظهرت طبيته حمافة ، ورأى تعقله سداجة . وأخذ أبواه البسيطان اللذان كانا يحملان لابنهما بمكانة إجتماعية شريفة ومتواضعة ، أخذوا على بيير ترده وحماسته ومحاولاته المخففة ، واندفاعاته العاجزة تلقاء الأفكار السامية والمهين البراقة . ومنذ أصبح رجلاً لم يعد يقال له : « انظر إلى جان وافعل مثله » ولكنه كان كلما سمعهم يرددون : « فعل

جان كذا، وصنع جان كذا، يفهم جيداً معنى تلك الكلمات والإشارة الخفية فيها .

وكانت أمهما امرأة ذات نظام، بوجوازية مقتصدة، عاطفية قليلاً، ناعمة الروح، لطيفة كعامله الصندوق، وهي لا تني كل يوم تهدئ من المنافسة القائمة بين ابنيها، المنافسة التي تسببها صغائر الحياة المشتركة . وما لبث أنه عكر سكينتها مؤخراً حادث بسيط خافت من مغبته ؛ ذلك أنها خلال الشتاء، وفي الوقت الذي أنهى فيه ولداها دراساتها التخصصية، التقت بجارة لها تدعى السيدة روزميلي، وهي أرملة ضابط بحار مات في البحر قبل سنتين، وكانت الأرملة الشابة صغيرة السن، عمرها ثلاث وعشرون سنة، سيدة واعية تعرف الحياة بغريرتها كالحیوان الطليق . وكانت كما لو أنها ترى الأحداث وتحملها وتفهمها وتحكم عليها بعقل سليم محدود، وقد اعتادت أن تزور في المساء هؤلاء الجيران المحبوبين الذين كانوا يقدمون لها كأساً من الشاي، وتشتعل عندهم بالكنفا وتأخذ معهم في التزرة . وكان الأب رولاند بسبب اندفاعه الأحمق في أن يكون بحاراً يسأل الصديقة الجديدة دون انقطاع عن الضابط المتوفى، فتحدث عنه من غير تردد، وتحكي رحلاته وقصصه القديمة، ذلك أنها امرأة عاقلة تحب الحياة وتحترم الموت .

ولما وجد ابناه بدورهما هذه الأرملة الحسنة في البيت أخذوا يتغزلان بها، ليس عن رغبة نابعة من الإعجاب، بل بقصد أن يفوز كل منهما على

الآخر. وكانت أمهما المرأة الحريصة العملية ترجو مخلصاً أن يفوز بها أحدهما، لأنّ الحارة الشابة غنية. لكن الأم تحب بالمقابل ألا يتأثر الطرف الثاني.

والسيدة روزميلي، زرقاء العينين، شعرها كتاج تتطاير شعراته لأقل نسمة، يبدو على مظهرها شعاعة وإقدام وميل للمشاجرة لا ينم على ما في نفسها من أسلوب الحكمة. بدا منذ حين أنها تفضل جان وتميل إليه، لأن طبيعته مشابهة لطبيعتها. ولم يظهر هذا التفضيل مع ذلك إلا في تغير بصوتها ونظرتها لا يكاد يبين، وإلا في سؤالها عن رأيه من حين إلى حين. ربما أحست أن رأي جان يدعم رأيها وأن يبير مخالف لها، فكانت عندما تتحدث عن أفكار الطبيب السياسية والفنية والفلسفية والأخلاقية تقول من وقت لآخر: «كلامك الفارغ» وعندئذ ينظر إليها نظرة القاضي الباردة، الذي يدين النساء، كل النساء، هذه الكائنات المسكينات.

ولم يدعها الأب رولاند قبل عودة ولديه، ولا مرة واحدة إلى رحلات صيده إذ ما كان يصطحب زوجته أبداً، لأنه يحب الخروج إلى الصيد قبل الفجر بصحبة الكابتن المتقاعد (بوسير) الذي كان التقى به مرة عند المد البحري، فأصبح منذ ذلك الوقت صديقه الحميم، وبصحبة البحار العجوز الملقب بـ (جان بار) الذي يعمل في حراسة المركب. وفي إحدى أمسيات الأسبوع الماضي، بينما كانت السيدة روزميلي تتعشى عندهم قالت لرولاند:

— لا بد أن يكون الصيد ممتعاً جداً؟

فسرّ الجوهرى المتقاعد في قرارة نفسه بكلامها، وأمسكته رغبة الكاهن يريد الحصول على اعتراف المؤمنين، فصاح قائلاً:

— أتريدن الذهاب للصيد؟

— نعم، طبعاً.

— الثلاثاء القادم؟

— نعم، الثلاثاء القادم.

— هل تستطيعين الخروج في الخامسة صباحاً؟

فأطلقت المرأة صيحة استغراب، وقالت:

— آه.. كلا!

فغاب أمله، وفترت همته، وأرتاب في تلييتها للدعوة، وسألها مع ذلك:

— في أي ساعة تستطيعين أن تخرجي؟

— في التاسعة طبعاً..

— ليس قبل ذلك؟

— لا، ليس قبل ذلك، والتاسعة مبكرة جداً.

وتردد الرجل . إنه بدون شك لن يصطاد شيئاً ، لأن السمك عندما ترتفع حرارة الشمس لا يقع في الشرك . ولكن الأخوين أسرعاً لتوهما ، فنظما الرحلة تنظيماً كاملاً .

وفي الثلاثاء التالي ألقى مركب (اللؤلؤة) مرساته عند الحجارة البيضاء لرأس (لاهيف) واصطاد ركابه الأسماك حتى الظهر ، ثم أخذوا غفوة ، ثم صادوا من جديد دون أن يحصلوا على شيء . وعندما أدرك الأب رولاند متأخراً أن السيدة روزميلي لم تكن تحب الصيد ، ولا يعجبها حقيقة إلا التزهة البحرية ، وعندما رأى خيوط صنارته لم تعد تمتز بالصيد ، صاح من غير تفكير ، وهو يتحرك كمن نفذ صبره : « زفت ! » . قال ذلك بشدة مخاطباً السمك الذي تعذر عليه الإمساك به ، والأرملة اللامبالية على السواء .

نظر إلى السمك في السلة ، سمكه هو ، وحملق فيه بفرح البخيل واهتزازه . ثم رفع عينيه إلى السماء ، ولاحظ أن الشمس تهبط نحو المغيب ، فقال :

— ما رأيكم أيها الأولاد أن نرجع قليلاً ؟

فسحب كل منهما خيطه ، ولفّه ، وعلقه بقطع الفلين والشصّ ، بعدما نظفاه ، وانتظر .

وقام رولاند ليستطلع الأفق على طريقة الرهان فقال :

— لم يبق من رباح، يجب أن نجذف يا أولاد.

وفجأة أضاف قائلاً وذراعه ممدودة نحو الشمال:

— عجباً، عجباً، هذه سفينة من ميناء ساوتبوتون.

وعلى البحر المسطح الممتد كقماش أزرق لا حدود له، يلتصع بانعكاسات الذهب والنار، صعدت هناك في الاتجاه الذي أشار إليه غيمة مسودة في السماء الوردية، لاحت تحتها السفينة وقد بدت من بعيد صغيرة جداً. وشوهد إلى الجنوب كذلك دخان آخر كثير يتجه نحو رصيف ميناء الهافر الذي لم يكن يميز فيه الخط الأبيض والمنارة القائمة كقرن على الطرف إلا بصعوبة. وسأل رولاند:

— أليس هذا هو اليوم الذي ترجع فيه السفينة النورماندية؟

فأجاب جان:

— بلى يا أبي.

— أعطني المنظار، أعتقد أنها هناك.

وسحب الأب أسطوانة المنظار النحاسية، وأحكم وضعها على عينه باحثاً عن النقطة، وفجأة قال وهو مسرور بما يرى:

— نعم، نعم، هذه هي، كنت أعرف هاتين المدختين. هل تريدان أن تشاهدي يا سيدة روزميلي؟

فأخذت السيدة روزميلي المنظار ووجهته نحو السفينة البعيدة عابرة المحيط، فلم تفلح في وضعه باتجاهها، فما ميزت شيئاً سوى الزرقة ودائرة ملونة من قوس قزح تامة الاستدارة، ثم أشياء غريبة تشبه الكسوف، تدعو إلى الغثيان. فقالت وهي ترد المنظار:

— ما عرفت يوماً كيف استعمل هذه الآلة، وهذا ما كان يغضب زوجي الذي يبقى ساعات على النافذة يشاهد السفن المبحرة.

فانزعج الأب رولاند وأضاف قائلاً:

— ربما يكون السبب هو النقص في عينيك، لأن منظاري عظيم.

ثم قدمه إلى زوجته وقال لها:

— هل ترهدين أن تنظري؟

— لا، شكراً، أعرف مقدماً أنني لن أستطيع.

السيدة رولاند امرأة في الثامنة والأربعين، لم تكن هيئتها تدل على عمرها، كانت تبدو في هذه النزهة ومع نهاية اليوم أكثر ابتهاجاً من الآخرين، بدأ شعرها الكستنائي يشيب، وتلبست بسحنة هادئة ذات وقار، سحنة راضية طيبة، يسر مرآها. ومع أنها كانت تعرف — على حد تعبير ابنها بيير — قيمة النقود إلا أن هذا ما منعها أبداً أن تذوق سحر الأفلام. أحبت قراءة القصص والشعر لا لقيمتها الفنية، بل لتستمتع بأحلام

اليقظة السوداء الوجدانية التي توقفها عندها مثل هذه القراءات . وكان بيت الشعر المبتذل السيئ غالباً ما يبرز عندها الوتر الصغير كما كانت تقول ، فيشحنها باحساسات لرغبة خفية وواقعية تقريباً ، تجدد لذة في العواطف الخفيفة التي تعكر قليلاً نفسها المنسقة تنسيقاً مرتباً ككتاب الحساب . ومنذ وصولها إلى ميناء المهاجر أخذ جسمها يسمن بوضوح ظاهر ، وامتلاً خصرها وتضخم ، كان فيما مضى لئناً نحيلاً . وقد سرتها كثيراً هذه النزهة البحرية .

لم يكن زوجها شريراً ، إلا أنه كان يعنفها من غير غضب ولا كراهية ، شأن الباعة المستبدين في دكاكينهم وهم يأمرن بطريقة الشتائم . كان يتحفظ أمام الغرباء ، ولكنه يتخلى عن تحفظه مع أسرته ، فيتخذ هيئة مخيفة ، رغم أنه كان يخاف الناس كلهم . أما هي فكانت ترضخ له دائماً بسبب كراهيتها للضجيج والمنازعات والنقاش غير المفيد ، ولا تطلب منه شيئاً . وعلى هذا فلم تكن تجرؤ ومنذ زمن طويل على سؤال السيد رولاند أن يصحبها إلى نزهة في البحر ، فاغتنتم بفرح عظيم هذه الفرصة وتذوقت لذتها النادرة الجديدة .

ومع بدء النزهة استرخت تماماً بعقلها وجسدها في هذا الانزلاق اللطيف على الماء ، ولم تعد تفكر بشيء ، ولم يسرح خيالها مع الذكريات ولا الآمال ، وخيل لها أن قلبها يطفو كجسدها على شيء لئّن سائل للذيد يتأرجح فيخدرها .

. وعندما أمر الألب بالعودة قائلاً: «هيا، إلى أما كنكم للتجديف» .
تبسمت وهي تنظر إلى ولديها يخلعان سترتيهما ويشمران عن سواعدهما أمام
قميصيهما .

أخذ بيير وهو أقرب الاثنين إلى المرأتين المجذاف الأيمن، وأخذ جان
المجذاف الأيسر، وانتظرا أن يصبح الرئيس: «إلى الأمام، بقوة» لأنه كان يهتم
بالقيادة المنظمة على أحسن وجه .

أنزلا معاً مجدافيهما بجهد واحد، ثم استلقيا إلى الخلف، وجدفا بكل
قوتيهما وبدأت معركة لإظهار القوة . كانت السفينة قد جاءت للصيد على
مهل يحملها الشراع، إلا أن النسيم سكن، فاستيقظ اعتزاز الرجولة فيهما
فجأة عندما سنحت الفرصة ليقيس أحدهما قوته بقوة الآخر .

عندما كانا يذهبان للصيد مع أبيهما عادة، يجدفان بلا نظام ولا قائد
يوجه الدفة، إذ يكون رولاند منشغلاً حينئذ بالخيوط وينتبه بالجملة لسير
المركب، فيرشده بحركة أو بكلمة: «خفف يا جان»، «أنت يا بيير
عجل» أو يقول «هيا، أنت أيها الأول . وأنت أيها الثاني ضع قليلاً من زيت
الدراع» . ومن يشرد بذهنه قليلاً فعليه أن يجدف بقوة أكثر، ومن يعجل
يلزمه تخفيف اندفاعه لترتد السفينة إلى الطريق الصحيح .

أما اليوم، فهما يستعرضان عضلاتهما، كان ساعدا بيير ذوي
شعر، نحيلين، لكنهما معرورقان . في حين كان ساعدا جان ضخمين
أبيضين متوردين قليلاً، مع كتلة عضلات تتحرك فيهما تحت الجلد .

جَدَفَ بَيرَ أَوَّلَ الأَمْرِ تَجْدِيفاً حَسَناً ، كَانَتْ أَسْنَانُهُ مَضْغُوطَةً ، وَجَبِينُهُ مَتَّجِعَداً ، وَأَقْدَامُهُ مَمْدُودَةٌ ، وَبَدَاهُ مَشْدُودَتَيْنِ عَلَى الْمَجْدَافِ الَّذِي كَانَ يَنْشِي لَطْوُلَهُ عِنْدَ كُلِّ جَهْدٍ . وَكَانَ مُرَكَّبٌ (الْمُلَوَّلَةُ) يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الشَّاطِئِ ، وَالْأَبُ رُولَانْدُ جَالِسٌ فِي مَقْدَمَتِهِ ، تَرَكَ الْمَقْعَدَ الْخَلْفِيَّ لِلْمُرَاتَيْنِ ، وَجَعَلَ يَشْهَقُ عِنْدَمَا أَمَرَ يَقُولُ : «فَلْيُخَفَّفِ الْأَوَّلُ ، وَلْيُعْجَلِ الثَّانِي» فَانْدَفَعَ الْأَوَّلُ بِجَهْدٍ مُضَاعَفٍ مِنَ الْغَضَبِ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الثَّانِي أَنْ يَجِيبَ عَلَى هَذَا الْإِبْحَارِ غَيْرَ الْمُنْظَمِ .

وَأَخِيرًا أَمَرَ الرَّيْسُ فَقَالَ : «فَقَا !» فَارْتَفَعَ الْمَجْدَافَانِ مَعًا ، وَجَدَفَ جَانُ بَأَمْرِ أَبِيهِ بِرَهْمَةٍ وَحِدَةٍ . وَبَدَأَ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ فَازَ عَلَى أَخِيهِ فَأَمْسَى أَكْثَرَ حَيَوِيَّةً ، وَشَعَرَ بِالْحَرَارَةِ ، يَمِينًا انْقَطَعَ نَفْسُ بَيرَ ، وَتَهَالَكَ مِنَ التَّعَبِ بِسَبَبِ جَهْدِهِ الْمَفَاجِئِ ، فَأَعْيَى وَصَارَ يَلْهَثُ . وَأَوْقَفَ الْأَبُ رُولَانْدَ الْمُرَكَّبَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ مُتَتَالِيَاتٍ ، لِيُعْطِيَهُ فُرْصَةً يَسْتَرُدُّ فِيهَا أَنْفَاسَهُ ، وَلِيُصَحِّحَ الْإِتْجَاهَ .

تَبَلَّلَتْ جَبْهَةُ الطَّيِّيبِ بِالْعَرَقِ ، وَشَحِبَ خَدَاهُ ، وَاعْتَرَاهُ خُزْيٌ وَغَضَبٌ وَنَعْتَمُ يَقُولُ :

— لَا أَدْرِي مَا بِي ، أَحْسَ بِتَشْنُجٍ فِي قَلْبِي . بَدَأْتُ بِدَايَةِ حَسَنَةٍ ، ثُمَّ ضَعُفَ ذِرَاعَايَ .

وَسَأَلَهُ جَانُ :

— هَلْ تَرِيدُ أَنْ أَجْدَفَ وَحْدِي ؟

— لا، شكراً، مستحسن حالي.

وقالت الأم بانزعاج:

— هيا يا بيب، ما معنى هذا؟، لست صغيراً يا بني.

فرفع كتفيه، واستأنف التجديف.

وبدا على السيدة روزميلي أنها لم تر ولم تفهم ولم تسمع. كان رأسها الأثقل الصغير يترد إلى الوراء، مع كل حركة من المركب، حركة مفاجئة جميلة ترفع نهايات شعرها.

وصاح الأب رولاند: «انظروا، هذا مركب الأمير ألبرت يتعقبنا» فنظروا كلهم، فرأوا مركباً طويلاً مسطحاً، له مدختان مائلتان إلى الخلف، وعنفتان صفراوان مدورتان كالخدود.

ووصلت سفينة ميناء ساوثبتون بسرعة فائقة وعليها الركاب، وقد شوهدت الشمسيات مفتوحة على ظهرها، كانت عنفتاها السريعتان تضجبان، نضريان الماء، تقذفان بالزبد، وتعطيانها هيئة السرعة، هيئة الريد المستعجل. وكانت تقطع الماء باستقامة رافعة من الماء شفتين رقيقتين شافتين تنزلقان على جانبيها.

وعندما اقتربت السفينة من مركب اللؤلؤة رفع الأب رولاند قبعته محياً، ولوحت المرأتان بمندليهما، فأجابت على التحية بعض الشمسيات

التي اهتزت بحموية على السفينة الكبيرة وهي تبعد تاركة خلفها على سطح البحر الهادئ اللامع بعض التموجات الخفيفة .

وشوهدت سفن أخرى يغطيها الدخان أيضاً ، تأتي بسرعة من كل صوب من الأفق نحو رصيف الميناء القصير الأبيض الذي كان يبتلع السفن كالقلم سفينة بعد أخرى . وكانت مراكب الصيد والمراكب الشراعية الكبيرة بصواريخها الخفيفة تنزلق في الماء تجرها سفن قاطرة غير مرئية ، فتصل كلها بسرعة أو ببطء نحو هذا الغول الأكل الذي يمتلئ من حين لآخر ، ويرد إلى البحر البعيد أساطيل السفن المختلفة تحمل السواري المتشابهة . وكانت قطارات البحر المستعجلة تفر إلى اليمين واليسار على بطن المحيط المسطح ، بينما كانت إحداى السفن الشراعية تغادر الميناء جرتها قاطرة أخرجتها ، وهي ما تزال واقفة ترتدي في الوقت نفسه من الصاري الكبير حتى الصاري الصغير أشرعتها البيضاء أو البنية التي تبدو محمرة في الغروب .

وتمت السيدة رولاند وعيناها نصف مغلقتين :

— يا لله ! ما أجمل هذا البحر !

فأجابت السيدة روزميلي متنهدة تنهدة عميقة لكنها خالية من الحزن :

— نعم ، ولكنه شرير أحياناً .

وصاح السيد رولاند :

— انظروا هذه هي السفينة النورماندية، تتقدم أمام المدخل،
ما أكبرها! أليس كذلك؟

ثم فصل الكلام عن ساحل البحر الواقع أمامهم...

ولفت رولاند الأنظار إلى أن ميناء الهاثر يفصل مقاطعتي النورماندي
السفلى عن العليا. ففي مقاطعة النورماندي السفلى شاطئ سهلي ينحدر في
المراعي والمروج والحقول حتى البحر. وعلى العكس من ذلك فإن الشاطئ
النورماندي العالي مستقيم في جرف كبير متعرج رائع يصنع جداراً عظيماً
أبيض بعيد الحدود، تحببي في كل ثلثة منه قرية أو ميناء: (ايترونا)،
(فيكان)، (سانت فاليري)، (لوتريور)، (دييب) ... إلخ.

ولم تنصت إليه المراتان أبداً، كانتا مستغرقتين في راحتهما، متأثرتين
بالنظر إلى المحيط المغطى بالسفن، التي كانت تجري كالحيوانات حول
ججورها، وبقيتا صامتتين، مذهولتين بالأفق الواسع من الهواء والماء في
غروب الشمس الرائع الذي يسبغ عليهما السكينة. وكان رولاند الوحيد
الذي يتكلم فلا ينتهي كلامه، لأنه من صنف الرجال الذين لا يتأثرون
بشيء، بينما تشعر النساء بعض الأحيان، وهن أكثر عصية من غير أن
يدركن السبب أن ضجيج الصوت غير الضروري ينفر كالكلام البذيء.

وكان بير وجان ساكنين وهما يجدفان بتأن، ومركب اللؤلؤة يتجه
نحو الميناء صغيراً جداً بالمقارنة مع السفن الضخمة. وعندما لاس
الرصيف، كان البحار باباغري ينتظره، فأخذ بيد السيدتين، ليساعدهما

على النزول . ثم دخلت الأسرة المدينة في الوقت الذي كان الناس فيه يعودون إلى منازلهم بهدوء وكثرة .. الناس الذين يذهبون كل يوم إلى الميناء وقت المد البحري .

كانت السيدتان رولاند وروزميلي تمشيان في المقدمة يتبعهما الرجال الثلاثة مصعدين في شارع باريس ، وكانتا تقفان أحياناً أمام محلات الأزياء أو دكاكين الصباغ ، لتأملأ قبعة أو خاتماً ، ثم تستأنفان السير بعد أن يتبادلا الرأي .

وفي ساحة (دو لاهورس) تأمل السيد رولاند كما يفعل كل يوم حوض (باسان دي كوميرس) المملوء بالسفن ، وشاهد بعده أحواضاً أخرى فيها سفن يلتصق بعض بطونها ببعض ، تقف على أربعة صفوف أو خمسة . وكانت الصواري التي لا تحصى فوق سطح عدد من الكيلومترات وهي بعوارضها وركائزها وحبالها تعطي لهذا الامتداد في وسط المدينة منظرًا لغابة كبيرة ممتدة . وعلى هذه الغابة العارية جعلت طيور النورس تحوم ، تمنع النظر لتتقضى كالحجارة الساقطة على كل قطعة طعام تطرح إلى الماء . وكان في طرف أحد الصواري ولد يربط بكرة ، فبدا وكأنه صعد إلى هناك ليجث عن أعشاش الطيور .

وسألت السيدة رولاند السيدة روزميلي :

— هل ترغبين أن تتعشي معنا عشاء دون رسميات فنهي يومنا معاً ؟

— نعم، بكل سرور، وأقبل إن كان بدون رسيمات، وسأكون مكتئبة لو أمضيت المساء وحيدة.

فتمتم بيير وقد كان يسمع، وجعد وجهه لقلة مبالاة المرأة الشابة :
« هذه الأرملة، لا تريد أن تفارقنا ». منذ أيام سماها « الأرملة » .
وما كانت هذه الكلمة وحدها لتزعج جان إلا بنغمتها التي بدت له قبيحة جارحة .

ولم يتلفظ الرجال الثلاثة بكلمة حتى باب المنزل . وكان منزلاً ضيقاً من طابقين صغيرين في شارع (النوماندية الجميلة) . وجاءت الخادمة جوزفين ففتحت الباب، فتاة في التاسعة عشرة، ريفية، رخيصة الأجرة، يدل شكلها على حماقة مفرطة . أغلقت الباب، صعدت خلف سادتها حتى الصالة في الطابق الأول ثم قالت :

— جاء .. ر .. رجل .. ثلاث مرات .

وصاح الأب رولاند الذي لم يكن يكلمها بدون زعيق ولا شتائم :

— من الذي جاء .. ألف لعنة ..

فلم تتأثر البتة بنبرة صوته العالية وأجابت .

— رجل جاء من عند كاتب العدل .

— من كاتب العدل هذا ؟

— من عند السيد كانوا ..

— وماذا قال هذا الرجل ؟

— قال : إن السيد .. سيد كانوا سيأتي هذا المساء بنفسه .

كان السيد لوكانو كاتباً بالعدل ، وهو في الوقت ذاته يكنّ شيعاً من الصداقة للأب رولاند ويعني بشؤونه . وعندما يعلن عن زيارته هذا المساء فإن ذلك يعني أمراً عاجلاً ومهماً ، ولهذا نظر أفراد أسرة رولاند بعضهم إلى بعض منزعجين للنبأ ، كما ينزعج أصحاب الثروة المتواضعة كلما تدخل الكاتب بالعدل الذي يثير مجموعة من مسائل مرغوبة أو مقلقة ، تتعلق بالعقود والموارث والدعاوى .

ونعم الأب بعد قليل من لحظات صمت :

— ماذا يعني هذا ؟

فجعلت السيدة روزميلي تضحك وقالت :

— هيا ، إنه إرث ، أنا متأكدة من ذاك ، لأنني أبشركم .

ولكنهم لم يكونوا ينتظرون موت أحد يورثهم مالا . وشرعت السيدة رولاند حالاً بذاكرتها القوية في معرفة ذوي القرى تبحث عن علاقات القرابة من جانب زوجها وجانبها ، مصعدة في سلسلة الآباء ، متبعة فروع العمومة والخطوة . فسألت دون أن تنزع قبعتها :

— قل لي أيها الأب (وكانت تدعو زوجها في البيت بالأب ، وتدعوه بعض الأحيان أمام الغرياء بالسيد رولاند) قل إذن أيها الأب ، هل تذكر من المرأة التي تزوجها جوزيف لوبرو زواجه الثاني ؟

— نعم ، بنت صغيرة من أسرة دومينيل ، بنت صاحب مكتبة .

— هل ولدت له ولداً ؟

أظن أن له أربعة أولاد أو خمسة على الأقل .

— لا ، إذن فلا أمل هناك .

ومن قبل أملت نفسها وهي تبحث ، تعلقت بأمل واهن إلى حد ما ، أمل هبط من السماء . ولكن يبير الذي يحب أمه كثيراً ويعرف فيها أحلامها البسيطة ويخشى عليها من خيبة الأمل ومن القلق والحزن فيما لو كان النبأ مزعجاً ، أوقفها قائلاً :

— لا تتسرعي يا أمي ، ليس لنا عم في أمريكا ! أما أنا فأعتقد أنه زواج جان .

فدهش الجميع لهذه الخاطرة . وقال جان وقد تضايق قليلاً لأن أخاه تكلم في مثل هذا الأمر أمام السيدة روزميلي :

— ولماذا لي ، وليس لك ؟ إن هذا الافتراض مردود ، فأنت الأكبر ، ولذا فالتناس يفكرون بك أولاً ، ثم إنني لأأهد الزواج .

فضحك بيير هائزاً وقال :

— إذن ، فأنت عاشق ؟

فأجاب الآخر مستاءً :

— أمن الضروري أن أكون عاشقاً لأقول إنني لا أريد الزواج بعد ؟

— حسناً ! فكلمة « بعد » تصحح كل شيء . فأنت في الانتظار .

— لا يهم ، أنا في الانتظار إن شئت .

ووجد الأب رولاند في إصغائه وتفكيره الحل القريب فجأة ، وقال :

— الله ! إننا لحمقى حقاً إذ نجهد أذهاننا . فحضرة السيد لوكانو

صديقنا ، وهو يعرف أن بيير يبحث عن عيادة ، وأن جان يبحث عن مكتب محاماة ، فحصل على ما يريد أحدهما .

كان هذا الكلام بسيطاً ومتملاً إلى حد كبير حتى إن الجميع وافقوا

عليه .

وقالت الخادمة : « الطعام جاهز » فدخل كل واحد إلى غرفته ليجهز

نفسه ويغسل يديه قبل أن يأخذ مكانه من المائدة . وكانوا بعد عشر دقائق

يتعشون في غرفة الطعام الصغيرة في الطابق الأرضي . لم يتكلموا إلا قليلاً في

البدء . ثم أبدى الأب رولاند بعد لحظات ومن جديد دهشته لزيارة الكاتب

بالعدل ! فقال :

ولكن لماذا لم يكتب شيئاً؟ لماذا أرسل كاتبه ثلاث مرات؟ لماذا لم يأتِ هو بنفسه؟

ورأى بدير الأمر طبيعياً فقال :

إنه يحتاج بلا شك إلى جواب عاجل ، وربما يريد اطلعنا على قضايا سرية لا تستحب كتابتها .

وظل الأربعة مشغولي البال ، يخالطهم قلق يسير لدعوتهم هذه المرأة الغربية التي تعيقهم عن النقاش واتخاذ القرارات . وكانوا قد صعدوا إلى الصالة عندما قدم الكاتب بالعدل . وصاح رولاند مرحباً بالسيد لوكانو :

— طاب يومك يا صاحب المقام العزيز .

وقامت السيدة روزميلي تقول :

— أما أنا فساذهب ، إنني متعبة جداً .

وحاولوا استبقاءها بلا حماس ، فلم توافق ، ومضت دون أن يشيعها أحد من الرجال الثلاثة كما كانوا يفعلون عادة . وانشغلت السيدة رولاند بالقادم الجديد وقالت له :

— فنجاناً من القهوة يا سيدي؟

— لا ، شكراً ، إنني قد تعشيت منذ حين .

— فنجائاً من الشاي إذن ؟

— لا أقول : لا ، ولكن بعد قليل ، فنحن سنتكلم أولاً عن

وأعقب هذه الكلمات صمت عميق لم تسمع فيه إلا حراً
من رقاص الساعة ، وإلا ضجة الأواني التي تغسلها في الطاب
الخادمة الحمقاء ، ضجة صاخبة لا يسمع معها من يصغي إلى
وراء الأبواب .

واستأنف الكاتب بالعدل يقول :

هل تعرفون في باريس شخصاً يدعى السيد ماريش
ماريشال ؟

فصاح السيد والسيدة رولاند معاً :

— نعم !

— أهو أحد أصدقائكم ؟

فصرح رولاند يقول :

— إنه أفضل الأصدقاء يا سيدي ، ولكنه باريسى متعصب
لا يغادرها ، وهو مدير دائرة في وزارة المالية ، لم أره منذ غادرت الـ
لم نزل نتبادل الرسائل . وكما تعلم ، فعندما يعيش الواحد بعيداً عن

واستأنف الكاتب بالعدل كلامه جاداً، وقال :

— لقد توفي السيد ماريشال .

فاضطرب الرجل والمرأة معاً اضطراباً خفيفاً من الدهشة الحزينة المتصنعة أو الحقيقية، الدهشة السريعة التي يعتادها المرء عندما يستقبل نبأ كهذا . وتابع السيد لوكانو يقول :

— ولقد أحررتني زميلي في باريس عن الجانب الأساسي في وصيته التي يعين فيها ابنكم جان، السيد حان رولاند وريثه الوحيد .

كانت الدهشة كبيرة لدرجة أسكت الجميع، فلم ينطق أحد بكلمة . وكانت السيدة رولاند أول من سيطرت على عواطفها، وتلعتمت تقول :

— يا إلهي، ليون المسكين .. صديقنا المسكين، يا إلهي، يا إلهي ..

مات !

وظهرت الدموع في عينيها، دموع النساء الصامتة، نقاط من الكآبة نبعت من روحها وسالت على خديها، وبدت مؤلة وواضحة في الوقت نفسه . أما رولاند فشرع يفكر، كان حزنه للفاجعة أقل من أمله المتعلق بالخبر . ولم يجرؤ مع ذلك أن يسأل حالاً عن تفاصيل الوصية، ولا عن مقدار الثروة، ولكنه من أجل أن يصل إلى الجواب الممتع سأل :

— ما سبب موت ماريشال المسكين؟

وكان السيد لوكانو يجهل ذلك جهلاً تاماً، فقال:

— لا أعرف سوى أنه مات دون وريث مباشر، وترك ثروته كلها، وتبلغ إيراداتها ٢٠ ألف فرنك تقريباً من أسهم فائدتها ٣٪، تركها لابنكم الثاني الذي شهد ماريشال ولادته ونشأته، ورأى أنه يستحق هذا الارث. وأوصى في حال رفضه القبول بها، أن يحول المبلغ إلى دار اللقطاء. ولم يستطع الأب رولاند حتى هذه اللحظة إخفاء بهجته فصاح:

— لعمرى! هذه الفكرة من قلب طيب. أما أنا، فلو لم يكن لي ورثة لما غاب عني أن أفعل مثلما فعل هذا الصديق الوفي.

وتبسم الكاتب بالعدل يقول:

— يسعدني أن أعلمكم الخبر بنفسى، وإنه لما يسر المرء أن يحمل إلى الآخرين أخباراً طيبة.

ولم يكن أحد يظن أن هذا الخبر الطيب هو وفاة صديق، خير صديق للأب رولاند، وقد نسي هو نفسه فجأة تلك الصداقة الحميمة، التي صرح بها منذ حين عن يقين راسخ.

واحتفظت السيدة رولاند وولداها بهيئة الحزن، فاستمرت في بكائها

قليلاً، ماسحة عينها بمنديلها الذي أسندته بعدئذ على فمها، تمتنع تنهدات عميقة .

وتمتم الطبيب يقول :

— كان رجلاً طيباً، كثير المودة، كان غالباً ما يدعونا للعشاء أنا وأخي . وكانت عينا جان مفتوحتين جداً لتسمعان، وأمسك بيده اليمنى، وبحركة مألوفة لحيته الجميلة الشقراء، ومررها عليها حتى نهايتها، كما لو أنه يريد أن يمدّها وينعمها . وحرك كذلك شفّتيه مرتين ليلفظ جملة تناسب الحال، ولم يجد بعد بحث طويل سوى أن يقول :

— كان في الحقيقة يحبني، كان يقبلني كلما جئت لزيارته .

ولكن أفكار الأب كانت تجري، تجري حول الميراث المعلن عنه كما لو استحق دفعه الآن، حول المال الخبأ وراء الباب، والذي سيدخل بعد حين، غداً، وبعد كلمة الموافقة . وسأل يقول :

— هل من صعوبة محتملة؟.. هل من دعوى؟.. هل من منازعات؟..

وبدا السيد لوكانو هادئاً عندما قال :

— لا، أخبرني زميلي الباريسي أن القضية واضحة، ولا ينقص إلا قبول السيد جان .

— عظيم إذن ، وأما الثروة فواضحة أيضاً .

— واضحة جداً .

— هل المعاملات كلها منتبهة ؟

— نعم ، كلها .

وفجأة أحس الجوهري القديم بسبب عجلته في الاستخبار ، أحس بشيء من الحشمة ، حشمة غائمة ، عريضة ، عابرة ، فقال من جديد :

— تعرف ، إنني إذا كنت أسألك الآن عن كل هذه الأشياء ، فلكي أحب ابني مضايقات لا يتوقعها . فهناك بعض الأحيان ديون في وضع غامض ، فكيف يمكنني أن أعرف ذلك ، أنا ؟ وربما يدس أحد ما في الحفاء فلا يخرج . وعلى كل حال ، فلست أنا الوريث . ولكنني أفكر بالصغير قبل كل شيء .

كان جان يلعب في الأسرة دائماً بـ « الصغير » رغم أنه كان أطول من بيير بكثير .

وفجأة بدأت السيدة رولاند تخرج من حلم وتذكر شيئاً بعيداً منسياً إلى درجة ما ، كانت تسمعه فيما مضى ، وليست متأكدة منه مع هذا ، فتمتعت تقول :

— ألم تقل يا حضرة الكاتب بالعدل إن صديقنا ماريشال رحمه الله ترك ثروته لصغيري جان؟

— نعم يا سيدتي .

فتابعت تقول ببساطة .

— هذا ما يسرني جداً ، لأنه دليل على حبه .

ووقف رولاند وقال :

— هل تريد يا صاحب المقام العزيز أن يوقع ابني على القبول الآن؟

— لا ، لا ... يا سيد رولاند . غداً ، غداً في مكتبي ، الساعة الثانية إن كان يناسبكم .

— طبعاً ، طبعاً ، يناسبنا !

وعندئذ قامت السيدة رولاند ، وتبسمت بعد الدموع ، وتقدمت بخطوتين نحو الكاتب بالعدل ، ووضعت يدها على ظهر أريكته وغمرته بنظرة عطف الأم الشاكرة وسألت :

— وفنجان الشاي يا سيد لوكانو؟

— والآن ، فبكل سرور يا سيدتي .

ودعيت الخادمة فحملت أولاً حلويات جافة في علب عميقة من

الصفائح، حلويات انكليزية، لاذوق فيها، قاسية تفتت، بدت كأنها مصنوعة لمنقار البيغاء، مختومة في صندوق من المعدن، يصلح لحملها في رحلات حول العالم. ثم ذهبت لتحضر مناديل ومادية مطوية على شكل مربعات صغيرة، مناديل شاي لم تكن أسر الطبقة العاملة تغسلها أبداً. ثم رجعت للمرة الثالثة تحمل السكرية والفناجين، وذهبت بعدها لتغلي الماء. وإذن فيجب الانتظار.

ولم يكن أحد من الحاضرين يتكلم، لأنهم كانوا كلهم يفكرون.. ولا مادة لديهم للكلام، ما عدا السيدة رولاند إذ كانت تبحث عن جمل مبتدلة، فتكلمت عن نزهة الصيد وأنت على مركب اللؤلؤة وعلى السيدة روزميلي. فردد الكاتب بالعدل: «لطيفة.. لطيفة».

وكان رولاند يسند صلبه إلى رخام المرفأة كما يفعل في الشتاء عند اشتعال النار، يضع يديه في جيوبه، وشفتاه تضطريان كأنهما تتحركان للتصفير. لم يستطع أن يبقى في مكانه، كانت تعذبه رغبات ملحة في أن يطلق عنان فرحه كله. وكان الأخوان على أريكتين متماثلتين، يريحان رجلاً فوق أخرى بالطريقة نفسها، على عيمن الطاولة التي تتوسط الغرفة وعلى يسارها، ينظران نظرة ثابتة أمامهما في أوضاع متشابهة مملوءة بتعابير مختلفة.

وأخيراً جاء الشاي فتناول الكاتب بالعدل فنجانته، ووضع فيه

السكر وشربه بعد أن فتت فيه بسكويته قاسية جداً لا يمكن قضمها ، ثم نهض وشد على الأيدي وخرج . وكرر رولاند القول :

— مع الموافقة ! غداً ، عندكم في الساعة الثانية . مع الموافقة ، غداً في الساعة الثانية .

في حين لم يقل جان كلمة واحدة .

وخيم الصمت بعد خروج الكاتب بالعدل ، ثم تقدم الأب رولاند ليضرب يديه المفتوحتين على كتفي ابنه جان صائحاً :

— حسناً ، أيها المخطوظ العظيم ، ألا تريد أن تعانقني ؟

وبدت عندئذ على جان ابتسامة ، وعانق أباه قائلاً :

— لم يكن يبدو لي هذا ضرورياً .

ولم يستطع الرجل السيطرة على فرجه فمضى يدق على خشب الأثاث بأظافره الخرقاء وكأنه يعزف على البيانو . واستدار معتمداً على عقبيه وكان يردد :

— يا للحظ ! يا للحظ ! هو ذا الحظ .

وسأل بغير:

— وإذن ، فكنتم تعرفون جيداً ما يشال هذا ؟

فأجاب الأب :

— أجل ، كان يسهر عندنا كل مساء ، ولعلك تذكر أنه كان يذهب إلى المدرسة ليأتي بك أيام العطل ، ويصطحبك إليها غالباً بعد العشاء . آ ، بالضبط ، صبيحة الولادة ، هو الذي ذهب ليحضر الطبيب ، كان يتغدى عندما حينما شعرت أمك بالألم . وفهمنا حالاً ماذا يعني ذلك ، وخرج بسرعة ولعلته أخذ قبعتي بدلاً من قبعته . أذكر هذا ، لأننا ضحكنا كثيراً فيما بعد . ويحتمل أنه تذكر هذه التفاصيل لحظة الموت فقال في نفسه ولا وارث له : « حساً ، سأترك ثروتي لهذا الصغير الذي شاركت في ولادته » .

وبدا على السيدة رولاند وقد غاصت في أريكتها ، أنها ابتعدت في ذكرياتها فتمتعت ، كما لو كانت تفكر وهي تتكلم :

— آه ، لقد كان صديقاً طيباً ، خدوماً جداً ، إنه رجل نادر في هذا الزمن .

ونفض جان قائلاً :

— سأتنزه قليلاً .

ودهش أبوه ، وحاول أن يمسكه ، لأنه يود البحث معه في المشاريع ، واتخاذ القرارات . ولكن الفتى ظل مصراً على الخروج متعللاً بموعد لديه . وعلى كل ، فالوقت طويل قبل الموافقة ، طويل جداً قبل الحصول على

الميراث . وقد خرج لأنه كان يرغب الخلوة بنفسه ليفكر . وصرح بيير بدوره عن رغبته في الذهاب ، وتبع أخاه بعد دقائق .

ومنذ خلا الأب رولاند بزوجته ضمها بذراعيه ، وقبلها عشر قبلات على كل خد . وقال ليغيب على لومها الذي كانت تفاتحه به غالباً .

— كما ترين يا عزيزتي ، لم يكن البقاء في باريس لمدة أطول مفيداً للأولاد ولا مفيداً لي ، إنه يتعب صحتي ، في حين يناسب صحتي المجيء إلى هنا ، والفرحة نزلت علينا من السماء .

فقالت وقد اتخذت هيئة جادة :

— تنزل من السماء لجان ، ولكن بيير ؟

— بيير ! إنه طبيب ، سيريح أموالاً .. ثم إن أخاه سيعينه .

— لا . لن يرضى . ومع ذلك فهذا الميراث لجان ، لجان وحسب ، لا لبيير .

وبدا الرجل حائراً ، وقال :

— وإذن ، فسوف نترك له مالاً أكثر قليلاً في وصيتنا .

— لا ، وهذا ليس عدلاً .

فصاح الرجل قائلاً :

— آه، في هذه الحال .. زفت ! ماذا تريدان أن أفعل أنا ؟ وأنت دائماً تبحثين عن أفكار تزعج كثيراً، يجب أن تفسدي مسراتي كلها. والآن يجب أن أنام، طاب مساؤك، وعلى كل فهذا حظ، حظ عظيم. ومضى جذلان رغم كل شيء، وبلا كلمة أسف واحدة للصديق الذي مات كريماً للغاية.

وبدت السيدة رولاند تفكر من جديد، وكانت قرية من المصباح الذي أخذ يطلق دخاناً أسود.

منذ أن خرج بيير توجه إلى شارع باريس، الشارع الرئيسي في ميناء
الهافر، الشارع المضيء الذي يعج بالحياة والضجيج. كان الهواء على
شاطئ البحر منعشاً يلامس وجهه، وكان يمشي الهوينى، عصاه تحت
ذراعه، ويداه وراء ظهره.

شعر بضيق وارهاق وانزعاج، كما يشعر من يتلقى نبأ مؤسفاً. ما من
فكرة محددة ترهقه، ولم يستطع ابتداء أن يقول من أين أتته هذه الوسوس
الثقيلة وهذا الحذر. إنه يتألم من ناحية معينة دون أن يعلم أين هي؛ كان
يحمل في نفسه نقطة صغيرة مؤلمة، هي جرح من تلك الجروح التي
لا يشعر بها أحدنا بوضوح ولا يجد مكانها، ولكنه جرح يضايق، يتعب،
يحزن، يثير. وأحس بألم غير معروف، ألم خفيف كحبة من الكآبة.

وعندما وصل إلى ساحة المسرح، أحس أنه مجذوب إلى أنوار مقهى
«تورتوي» وتقدم ببطء نحو الواجهة المضيئة، ولكنه في اللحظة التي دخل

فيها، فكر أنه سيجد فيه أصدقاء ومعارف وبأساً لا بد أن يتكلم معهم وهو لا يريد فاجتاحتته فحأة موجة اشمزاز من ضجة رواد المقاهي المبتذلة التي يجلبها فنجان القهوة وكأس الشراب .

وعندها عاد بخطواته، ورجع ليأخذ الشارع الرئيسي الذي يقود إلى الميناء، وتساءل في نفسه: «إلى أين سأذهب إذن؟» بحث عن مكان يعجبه ويناسب حاله فلم يجد، لأنه منزوع من الوحدة، ولا يريد أيضاً أن يلقى أحداً.

وعندما وصل إلى الرصيف الكبير للميناء تردد كذلك مرة أخرى، ثم استدار نحو الرصيف الجانبي، واختار الانفراد.

وعندما لامس أحد المقاعد على صحور كاسر الأمواج جلس وقد تعب من المشي، واشمأز من الزهرة حتى قبل أن يقوم بها. وتساءل: «ما الذي حصل لي هذه العشية؟» وكأ يسأل أحداً مرئياً ليعرف سبب ارتفاع حرارته شرع يبحث عن بعض التناقضات التي استطاع أن يتوصل إليها.

كان ذهنه بين طبيعتين مضطرباً ورنيناً وفي وقت معاً، كان يتهيج ثم يتعقل، يؤيد اندفاعاته أو يستنكرها، ولكن الطبيعة الأولى تظل عنده آخر الأمر أشد، ويبقى جانب الإحساس لديه مسيطراً على جانب الدكاء..

وإذن فقد كان يبحث من أين جاءه التوتر الأعصاب هذا، هذه الحاجة إلى الحركة دون أن تكون عنده رغبة إلى شيء، هذا الميل للالتقاء

بأحد الأشخاص الذين ليسوا على رأيه، وهذا الاشتمزاز من الناس الذين يستطيع أن يراهم، ومن الأشياء التي يستطيعون أن يقولوها له .

وطرح هذا السؤال : «أيكون ذلك لإرث جان؟» أجل هذا ممكن بعد كل شيء . فعندما أعلن الكاتب بالعدل ذاك الخبر، شعر بقلبه تسرع ضرباته قليلاً، والمرء بالطبع لا يسيطر على نفسه دائماً، إنه ليعاني من عواطف لا إرادية مستمرة ضد الآخرين الذين يكافحون دون طائل .

وأخذ يفكر تفكيراً عميقاً بهذه المشكلة الفيزيولوجية للانطباع الذي يتولد من الحدث، فيؤثر على الكائن الغريزي، ويحدث فيه تياراً من الأفكار والإحساسات المؤلمة، أو المفرحة، مخالفاً للأفكار التي يريدوها، والتي يدعوها، والتي يراها طيبة سليمة، هذا الكائن المفكر غدا مرتفعاً عن نفسه باستخدام عقله . تصور الحالة النفسية لابن ورث ثروة كبيرة، يستطيع أن ينال بفضلها كثيراً من المباهج التي كان يرغب فيها منذ أمد طويل، مباهج محبوبة يتمتع منها أب بخيل .

نهض وأخذ يمشي ثانية إلى طرف الرصيف . وشعر بتحسن وسرور، لأنه فهم نفسه، ودهش منها، واكتشف فيها الشخص الآخر الذي يسكنها والذي نكتشفه عادة في أنفسنا .

وفكر : «واذن، فقد كنت أحسد جان، إن هذا في الحقيقة لأمر دنيء ! تأكدت من ذلك الآن، الفكرة الأولى التي خطرت لي هي زواجه من السيدة روزميلي . وأنا من جهة أخرى لأحب هذه الصغيرة الحمقاء

المتعلقة التي خلقت ليشمعز منها الفكر السليم وذوو الحكمة. وإذن فهذا حسد لا مبرر له، إنه جوهر الحسد نفسه، الحسد للحسد ! لا بد أن أعالج ذلك» .

وكان وصل إلى الركيزة ذات العلامات المستعملة لقياس ارتفاع الماء في الميناء، فأشعل عود ثقاب لقراءة قائمة السفن التي ستدخل المرفأ مع المد القادم. كانت سفن بخارية تنتظر، قادمة من البرازيل والأرجنتين وشيلي واليابان، وسفینتان من الدنمرك، وسفينة شراعية من النرويج، وسفينة بخارية تركية أدهشت بير كما لو أنه قرأ: « سفينة بخارية من سويسرا » ولمح في لون من الحلم الغريب سفينة كبيرة مغطاة برجال ذوي عمام كانوا يصعدون على الجبال بسرراويل عريضة. قال في نفسه: « يا لحماقتي، إن الأتراك من الشعوب البحرية » .

وبعد أن خطا عدة خطوات وقف ليتأمل الميناء. على اليمين فوقه قرية (سانت أدرس) منارتان كهربائيتان في رأس (دو لاهيف) تشبهان توأمين ممسوخين لرجال السيكلوب يلقيان على البحر نظرات طويلة شديدة، وكان يخرج من موقد المنارتين شعاعان ضخمان متوازيان للمذنبين يهبطان على منحدر مستقيم بلا حدود، من قمة الشاطئ إلى عمق الأفق. ثم على رصيفي الميناء الجانبيين ضوءان آخران من أولاد هذين العملاقين يشيران إلى مدخل مرفأ الهافر. وهناك ومن الجانب الآخر لنهر السين كانت ترى أضواء أخرى أيضاً، أخرى كثيرة ثابتة الإضاءة أو مترددة، يستمر

ضوءها، أو ينطفئ ويستعل، تنفتح وتغلق كالعيون، عيون المرافع الصفراء والحمراء والخضراء التي تراقب البحر المظلم المغطى بالسفن، العيون اليقظة للبر المضياف الذي يقول بحركة الحفون الميكانيكية المستمرة التي لا تتغير: «أنا هنا، أنا ميناء تروفيل، أنا ميناء أونفلور، أنا نهر قرية بونت أودمير» ومن بعيد سيطرت على كل الأضواء منارة عالية جداً، حتى ليظنها الناس كوكباً، مسارة قرية (ابتوفيل) ترتفع في السماء، تشير إلى طريق مدينة روان، خلال أكوام الرمل في مصب النهر الكبير. ثم على الماء العميق، على الماء غير المحدود، الماء الأشد ظلمة من السماء، كان يعتقد الناظر أنه يرى هنا وهناك نجوماً، نجوماً تلتصق في ضباب الليل صغيرة قرية أو بعيدة، بيبضاء وخضراء وحمراء أيضاً، كانت ساكنة كلها تقريباً، ومع ذلك فكان بعضها يبدو وكأنه يجري، إنها أضواء السفن ألقت مراسيها منتظرة المد القادم، أو مبحرة تبحث عن مكان لترسو فيه.

في هذا الوقت بالذات أشرق القمر خلف المدينة، كان كمنارة ضخمة جليلة منيرة في أديم السماء ترشد أساطيل النجوم الحقيقية التي لا تنتهي.

وتتم بير بصوت عالٍ تقريباً: «هو ذاك، فنحن الذين نصنع القلق لأنفقه الأسباب».

وفجأة انزلق بالقرب القريب منه في الخوض العميق العريض الأسود بين رصيفي الميناء، انزلق ظلام واسع غريب، فمال على حاجز الغرائيت،

فرأى سفينة صيد كانت راجعة، لم تحدث ضجة من صوت إنسان أو ضجة من صوت موج أو صوت مجدف، كان تنهذى ببطء بشراعتها العالي البني الممدود لنسيم البحر. وفكر: «ما أهدأ الحياة، لو استطاع العيش هنا!» ثم خطا عدة خطوات فلمح رجلاً جالساً على نهاية الرصيف. رجلاً حالمًا عاشقاً حكيماً، سعيداً أو شقياً؟ من عساه يكون هذا؟ واقترب بفضول ليرى وجه الرجل المنزل فعرف فيه أخاه:

— آ.. هذا أنت، يا جان؟

— آ.. بيبير.. ماذا جئت تفعل هنا؟

— إنني أستروح الهواء. وأنت؟

فشرع جان يضحك قائلاً:

— وأنا أستروح الهواء أيضاً.

وجلس بيبير بقرب أخيه وقال:

— حسناً، إن ذاك الجميل حقاً.

— طبعاً.

وفهم من نغمة صوته أن جان لم يكن ينظر إلى شيء، فاستأنف

يقول:

— أنا، عندما جئت إلى هنا كانت لدي رغبات طائشة للخروج،

للذهاب مع هذه السفن كلها نحو الشمال أو نحو الجنوب، أظن أن هذه الأضواء هناك تصل من أنحاء العالم كلها، من بلاد الزهور العظيمة والفتيات الجميلات البيضاء والبرونزيات، من بلاد عصافير الدوري، والفيلة، والأسود الطليقة، وملوك الزنج، من كل البلاد التي كانت لنا قصصاً خرافية، والتي لم نعد نصدقها، قصصاً عن القطرة البيضاء والأميرة النائمة. سيكون ظريفاً حقاً أن تقوم بنزهة هناك، ولكن يلزم كثير من النقود.

وسكت فجأة وهو يفكر، إن أخاه يمتلك الآن هذه النقود، وإنه متحرر من كل همّ متحرر من الأعمال اليومية، طليق بدون عقال، سعيد مبتهج، يستطيع أن يذهب إلى أي مكان يريد، نحو شقراوات السويد أو سمراوات هافانا.

ثم اجتاحته بشكل مفاجئ وسريع فكرة من أفكاره غير الإرادية هذه والمألوفة لديه، حتى إنه لم يكن يستطيع أن يتبأ بها ولا أن يقفها ولا أن يعدلها، بدا له أنها آتية من روح ثانية مستقلة وعنيفة: «أف ! إنه أحق جداً، سيتزوج روزميلي الصغيرة». وقام وهو يقول:

سأتركك لتحلم في المستقبل، وأما أنا فأحتاج إلى المشي.

وشد على يد أخيه، وتابع يقول بلهجة ودية:

— حسناً يا عزيزي جان، ها أنتذا غني ! أنا مسرور جداً لأنني

التقيت بك وحيداً هذه العشية لأقول لك : كم جعلني ذاك سعيداً . إنني أهنتك من كل قلبي ، وأحبك .

وتأثر جان ذو الطبيعة الناعمة ، تأثر جداً ، وتلثم وهو يقول :

— شكراً .. شكراً يا أخي الطيب بيير ، شكراً .

واستدار بيير راجعاً في خطواته البطيئة ، عصاه تحت إبطه ، ويداه خلف ظهره .

وعندما دخل المدينة تساءل من جديد عما سيفعل ، إنه مستاء من هذه النزعة المقتضية ، مستاء من حرمانه البحر بوجود أخيه . وخطرت له فكرة : « سأشرب كأس نبيذ عند الأب ماروفسكو » . وعندها مضى مصعداً باتجاه حي أنجوفيل .

كان الأب ماروفسكو معروفاً في مشافي باريس ، عجوز بولوي ، لاجئ سياسي كما كان يقال ، كانت له قصص فظيعة هناك ، وجاء ليمارس في فرنسا بعد فحوص جديدة مهنته في الصيدلة ، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن حياته الماضية ، ولذا انتشرت عنه قصص بين الأطباء ، والأطباء المقيمين وبين جيرانه فيما بعد ، واستحوذت شهرة هذا الثائر على الدولة ، عضو مذهب الهيلينية (العدمية) ، قاتل الملك ، الوطني المستعد لعمل كل شيء ، الذي نجا من الموت بمعجزة ، استحوذت على خيال المغامرة الجرئية عند بيير رولاند ، فصار صديق العجوز البولوي دون أن يحصل منه مع ذلك على أي

بيان عن ماضيه . وبفضل الطبيب الشاب جاء الصيدلي ليقم في ميناء
المهاجر .. راجياً أن يكون لديه زبائن كثيرون يرسلهم إليه هذا الطبيب
الناشئ ، وفي انتظار ذلك ، كان يحيا حياة فقر في صيدليته المتواضعة ، يبيع
الأدوية في حية لصغار البورجوازيين والعمال .

وكان بيير غالباً ما يذهب ليراه بعد العشاء ، ويتحدث معه ساعة ،
لأنه كان يحب طلعة ماروفسكو المأدبة وحديثه القليل وصمته الطويل الذي
يراه عميقاً .

قنديل واحد من الغاز كان يشتعل فوق الفتريئة المملوءة بالقوارير ، لم
تكن الأضواء مسلطة على القوارير كلها بسبب التوفير . وخلف الفتريئة
جلس الرجل على كرسيه ، وقدماه ممدودتان ، إحداهما على الأخرى . كان
عجوزاً أصلح ، أنه كبير كمنقار الطير ، ينحدر من جبهته الجرداء ،
فيكتسب هيئة ببغاء حزينة ، وكان ينام بعمق ، فتدلى ذقنه على صدره .
استيقظ على زين الجرس ، فقام . عرف الطبيب ، فتقدم منه ويده
ممدودتان .

كان معطفه الأسود المنقط يقع الحموض والسوائل واسعاً جداً على
جسده النحيل الصغير . فبدأ كأنه ثوب كاهن قديم ، وكان الرجل يتكلم
بلهجة بولونية تعطي صوته النحيل شيئاً من طفولية ، فظهر منه زأزأة ونغمة
من كائن صغير يبدأ بالكلام .

جلس بيير ، وسأله ماروفسكو :

— ما الجديد، يا عزيزي الطبيب؟

— لا شيء، دائماً الأمر نفسه في كل مكان.

— لا يدل مظهرك على المرح اليوم.

— أنا لست مرحاً على الغالب.

— هيا، هيا، نخلّ عنك. أتريد كأس نبيذ؟

— نعم، بكل سرور.

— إذن، سأذيقك تركيبة جديدة. منذ شهرين وأنا أبحث لاكتشف بعض الأشياء من الكشمش [عنب الديب] الذي لم يُصنع منه حتى الآن إلا الشراب.. اكتشفت.. اكتشفت.. نبيذاً طيباً، طيباً جداً، طيباً جداً.

ومضى مبتهجاً إلى خزانة لفتحها، واختار زجاجة حملها. كان يقوم بحركات قصيرة ليست تامة، لم يكن يمدّ ذراعه مدّاً كاملاً، لم يكن يفتح ساقيه فتحاً تاماً، ولا يقوم بحركات كاملة حاسمة. وكانت أفكاره تبدو مثل أفعاله. يشير إليها، يبعدُ بها، يحاولها، يقترحها، ولكنه لا يسيئها. وكان الشاغل الأكبر في حياته تحضير الأشرطة أو الأنبذة، وكان غالباً ما يقول: «تصنع الثروة بالشراب الطيب أو النبيذ الفاخر». استحدث معات

التركيبات الحلوة دون أن يصل إلى النجاح مرة واحدة . وكان بيير يؤكد أن ماروفسكو يذكره بشخصية (مارا)^(١) .

وتناول الرجلان كأسين صغيرتين في مؤخرة الصيدلية ، وحملهما إلى طاولة تحضير الأدوية ، ثم تفحصا لون السائل على مصباح الغاز . قال بيير :

— ياله من عقيق رائع .

— أليس كذلك ؟

وهذا رأس العجوز البولوني المشابه للبيغاء مسروراً . تذوق الطبيب ، وتلمظ ، تفكر ، تذوق من جديد ، تفكر من جديد ، ثم صرح يقول :

— لذيذ جداً ، لذيذ جداً ، وجديد جداً للأذواق ، إنه اكتشاف يا عزيزي .

— آه ، في الحقيقة أنا مسرور جداً .

وعندئذ استشار ماروفسكو الطبيب فيما يسمى هذا النبيذ الجديد ، كان يريد أن يسميه : (روح الكشمش) أو (الكشمش الصافي) أو (الكشمش) أو (الكشمشين) فلم يوافق بيير على أية تسمية من هذه التسميات ، وخطرت للعجوز فكرة فقال :

(١) مارا : ثوري فرنسي ، طبيب ، اشتهر بعمه وقتل غيلة سنة ١٧٩٣ وهو يستحم .

— ما قلت قبل لحظات مناسب جداً، مناسب جداً (العقيق الرائع). فأنكر بيير هذه التسمية أيضاً رغم أنه قالها. ونصح ببساطة أن يسميه (الكشميش) فصّرَح ماروفسكو أنه رائع. ثم سكت الاثنان، وبقيا جالسين دقائق تحت قنديل الغاز الوحيد لا يبسان بكلمة. وأخيراً قال بيير رغماً عنه:

— آ، حدث لنا شيء غريب جداً هذا المساء، إنّ صديقاً من أصدقاء والدي ترك ثروته لأخي بعد وفاته.

وبدا على الصيدلي أنه لم يفهم مباشرة، ولكنه رجا بعد التفكير أن يكون الطبيب قد ورث النصف. وعند الشرح ظهرت عليه الدهشة والانزعاج. وردد للتعبير عن استيائه من رؤية صديقه الشاب ضحية:

— لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً.

وأراد بيير الذي عاد إليه توتر أعصابه أن يعرف ماذا يعني ماروفسكو بهذه الجملة فقال:

— لماذا لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً؟ ما النتيجة السيئة التي يمكن أن تكون من جراء وراثة أخي لثروة صديق من أصدقاء الأسرة؟ ولكن الرجل الحذر لم يشرح أكثر من ذلك. وقال:

— في هذه الحال يترك للأخوين بالتساوي، وأقول لك إن هذا لن يظهر ظهوراً طيباً.

ومضى الطبيب وقد نفذ صبره ، فعاد إلى البيت ، وأوى إلى سريره
خلال وقت قصير ، وسمع أخاه جان يمشي على مهله في الغرفة المجاورة ، ثم نام
بعد أن شرب كأسين من الماء .

واستيقظ الطبيب في اليوم التالي وقد رسخ قراره على جمع الثروة . كان قد اتخذ مثل هذا القرار في عديد من المرات دون أن يتابعه في حيز التطبيق . يمضي في بداية كل محاولاته لاتخاذ مهنة جديدة يأمل فيها الغنى السريع الذي يدعم جهوده وثقته بنفسه حتى تظهر أمامه العقبة الأولى ، وحينئذ يقذف به الإخفاق في طريق جديد .

أخذ يفكر وهو عائص في سريريه بين البطانيات الدافئة : كم طبيباً من الأطباء صار ذا ملايين خلال مدة يسيرة ؟ أما هو فبذرة من المعرفة العملية استطاع في أثناء دراسته أن يميّز أشهر الأساتذة ، وكان يحكم عليهم بالعباء . حقاً إن قيمته تساويهم ، وربما تزيد ، فإن استطاع بطريقة ما أن يستميل الزبائن أصحاب الأناقة والغنى من سكان الهاثر ، تمكن بسهولة أن يربح مائة ألف فرنك في العام . وحسب الأرباح الثابتة بدقة ؛ سيخرج في الصباح ، سيذهب إلى مرضاه . وبإجراء المعادلة الدنيا : عشرة مرضى كل

يوم يدفع كل منهم عشرين فرنكاً ، سيصل دخله على الأقل إلى ٧٢ ألف فرنك في السنة بل ٧٥ ألف فرنك ، لأن رقم عشرة مرضى في التدقيق أقل من الواقع الأكيد . وسيستقبل بعد الظهر في عيادته مرضى آخرين ، عشرة مرضى بعشرة فرنكات ، يعني ٣٦ ألف فرنك ، وهذه إذن ١٢٠ ألف فرنك ، رقم مدور . والزبائن القدامى والأصدقاء الذين سيعودهم في منازلهم بعشرة فرنكات ، وسيستقبلهم في عيادته بخمسة ، ربما يؤثرون على جملة الحساب فيخفضونه تخفيضاً بسيطاً ، سيعوضه باستشارات الأطباء الآخرين وبالمنافع الصغيرة المعتادة في المهنة .

لا شيء أسهل من الوصول إلى ذاك ، ويلزمه إعلانات ذكية ، أنباء في جريدة فيكارو تشير إلى أن الهيئة العلمية في باريس تتطلع باهتمام إلى العلاجات المدهشة التي يباشرها العالم الشاب المتواضع في مدينة الهافر . وسيكون أغنى من أخيه ، أغنى وأشهر ، وسيكون مسروراً من نفسه ، لأنه لن يصل إلى الثروة إلا بنفسه ، وسيغدو عظيماً في عين أبويه العجوزين الفخورين به لهذه الشهرة . لن يتزوج ، لا يريد قط أن يترك وجوده بامرأة واحدة تضايقه بل ستكون لديه حبيبات بين زبواناته الرائعات الجمال .

كان يحس بالثقة الثابتة في النجاح ، لدرجة أنه قفز خارج سريره كأنما يريد أن يمسك به حالاً ، وارتدى ثيابه ليذهب باحثاً عن شقة في المدينة تناسبه .

وفكر هل يمشي خلال الطرقات ، وقال في نفسه : ما أهون الدوافع

الحاسمة لأعمالنا ، كان يستطيع منذ ثلاثة أسابيع أن يتخذ هذا القرار ، كان يجب أن يتخذ هذا القرار الذي ولد في نفسه فجأة عقب ميراث أخيه بلا شك . جعل يقف أمام الأبواب التي علقت عليها بطاقات تعلن عن شقة جميلة ، عن شقة فاخرة للأجرة ، كانت الاعلانات الخالية من الأوصاف تملؤه بالارداء . زار الشقق مترفعاً ، قاس ارتفاع السقوف ، رسم على مفكرته مخططاتها ، ووضع غرفها ، وحالة منافذها . وكان يخبر أصحاب الشقق أنه طبيب وأنه يستقبل مرضى كثيرين . يجب أن يكون الدرج عريضاً ونظيفاً جداً ، وهو على كل حال لا يريد الارتفاع عن الطابق الأول .

وبعد أن سجّل سبعة عناوين أو ثمانية ، وكتب مسودة لمائتي إعلان ، رجع ليتناول الغداء متأخراً ربع ساعة عن الموعد .

وسمع منذ أن دخل البهو ضجعة الصحن ، إنهم إذن يأكلون دون أن ينتظروه . لماذا ؟ والأسرة عادة لا تأكل على الوقت المحدد . تجعد وجهه ، واستاء ، لأنه كان سريع التأثير إلى حد ما . وما أن دخل حتى قال له رولاند :

— هيا ، يا بيبير ، أسرع ، يا للجنة ! فأنت تعلم أننا سنذهب في الساعة الثانية إلى الكاتب بالعدل . وليس اليوم يوم إضاعة وقت .

ولم يجب الطبيب بكلمة وجلس بعد أن قبل أمه وشدّ على يد أبيه وأخيه ، وأخذ من الصحن الكبير وسط المائدة قطعة اللحم المحفوظة له من ضلع خروف . كانت باردة وجافة ، وربما كانت أسوأ القطع . وقال لنفسه :

كان يمكن أن تترك في الفرن حتى أصل، لأن يضع عقل الأهل إلى درجة نسيان الابن الآخر، الابن الأكبر، نسياناً تاماً.

واستؤنفت المحادثة التي توقفت بقدمه، كانت السيدة رولاند تقول لجان :

— أما أنا فلو كنت مكانك فإنني أقيم في منزل ذي أبهة، وعلى شكل يسترعي الانتباه، وأظهر في المجتمعات، أركب حصاناً، أختار قضية أو اثنتين من القضايا المثيرة لأرفع بها واكتسب شهرة في قصر العدل. أحب أن أكون من المحامين ذوي الهواية والبحث المتقضي. فأنت والحمد لله بمأمن من الحاجة ولن اتخذت مهنة فلكي لا تخسر إجمالاً ثمرة دراساتك، ولأن الرجل يجب أن يعمل.

وصرح الأب رولاند الذي كان يقشر إجازة :

— يا للجنة ! وأنا لو كنت مكانك لاشتريت زورقاً جميلاً، مركباً على شاكلة مراكب قباطتنا. ولأبحرت به حالاً إلى السنغال.

وأدلى ببيير برأيه، فقال :

— ليست الثروة إجمالاً هي التي تكسب المرء قيمته المعنوية، قيمته الفكرية، إنها ليست للأدنين إلا سبباً للانحطاط، بينما هي على العكس مع الأقوياء، ترفعهم، وهؤلاء مع ذلك قلة. فإن كان جان رجلاً عظيماً حقاً، فإنه يستطيع أن يكون كذلك. إنه الآن في مأمن من الحاجة، ولكن عليه

أن يعمل أكثر مما لو كان في ظروف أخرى. يجب ألا يهتم بالمرافعة في قضايا الأراذل واليتامى، وألا يرضى بقدر محدود من الفرص عن دعاويه رابحة أو خاسرة. بل ينبغي له أن يصبح متشريعاً قانونياً بارزاً، أن يكون نوراً للقانون.

وأضاف كنتيجة لما يقول :

— لو أنني أملك المال أنا، لتفرغت لتشريح جثث كثيرة !

فهر الأب رولاند كتفيه وقال :

— ترالالا ! حكمة الحياة العظيمة أن تجري حلوة، نحن بشر،
ولسنا كالبهايم. يلزم للمرء العمل عندما يولد فقيراً، لا بأس عندئذ أن
يشتغل. ولكنه — مع امتلاكه الدخل الوفير — سيكون بحق الله أحق لو
ربط نفسه بعمل يتعب مزاجه.

فأجاب بيير بتعالٍ :

— ليست مبولنا واحدة ! فأنا لا أحترم في الدنيا إلا المعرفة والدكاء،
وما تبقى فمحتقر عندي.

وكانت السيدة رولاند تجهد دائماً في تخفيف الزعيق الذي لا ينقضي
بين الأب وابنه، فغيرت موضوع المحادثة، وتكلمت عن جريمة اغتيال
حدثت في الأسبوع الماضي ببلدة (بولبيك — نوانتوت) فانشغلت الأذهان
على التو بالظروف المحيطة بالمجرم، واستجرها الرعب، الرعب المدهش وأسرار

الجرائم الجذابة التي تمارس على الفضول البشري جاذبية غريبة بشكل عام ،
ولو أنها مبتذلة مخجلة . وقال الأب رولاند وكان طوال الوقت ينظر في ساعته
من حين لآخر :

— هيا ، يجب أن نكون في الطريق .

فقال بيير ساخراً وهو يضحك :

— حقاً ، لم يبق إلا ساعة واحدة فقط ، ولا يدعو هذا أن تطعموني
قطعة لحم باردة .

وسألته أمه :

— هل تأتني إلى الكاتب بالعدل ؟

فأجاب بجفاف :

— أنا ، لا ، لأفعل ماذا ؟ إن حضوري لا يفيد البتة .

وكان جان مستمراً على صمته كما لو أن الأمر لا يعنيه . وعندما تحدثوا
عن اغتيال بولبيك تحدث بوصفه قانونياً عن بعض الآراء المتعلقة بالجريمة
والجرمين وكيف تطورت . ثم سكت من جديد . وكانت سعادته تظهر في
إشعاع عينيه ، واحمرار خديه الخيويين ، وكل شيء فيه حتى لحيته البراقة .

وبقي بيير وحيداً بعد ذهاب أسرته ، فخرج يستأنف بحثه عن شقة

للإيجار . وبعد ساعتين أو ثلاث من صعود الأدراج ونزولها اكتشف أخيراً على شارع فرانسوا الأول شقة ظريفة .

كانت الشقة كبيرة في الطابق الأرضي، لها بابان على طريقين مختلفين، صالتان ورواق بواجهة زجاجية حيث سيتسلى المرضى بين الزهور وهم ينتظرون دورهم، وقاعة طعام فخمة مستديرة تطل على البحر .

وكان الشرط أن يدفع عند الإيجار ثلاثة آلاف فرنك عن المدة الأولى مقدماً، ولم يكن يملك منها فرنكاً واحداً . ولاتكاد الثروة الصغيرة التي جمعها أبوه تصل إلى ثمانية آلاف فرنك من الإيرادات . ولام يبير نفسه لأنه يخرج أهله بتردداته الطويلة في اختيار المهنة، وفي محاولاته التي يهملها دائماً، وفي ابتداءاته المتكررة المستمرة .

خرج وهو يعدُّ بالجواب قبل انقضاء يومين، وخطرت له فكرة أن يطلب من أخيه حالما يقبض ميراثه قيمة ثلث الإيجار أو حتى نصفه، وقال لنفسه : سيكون ذلك ديناً لأشهر معدودة، وسأسدده قبل انقضاء سنة على الأكثر وهذا ميسور جداً، وسيسرُّ أخي لمساعدتي .

ولما لم تبلغ الساعة الرابعة، ولم يكن لديه شيء يفعله، لاشيء مطلقاً، ذهب ليقعد في الحديقة العامة، بقي على مقعده وقتاً طويلاً لا يفكر بشيء، عيناه إلى الأرض وقد أثقله التعب الذي بات شديداً .

أمضى الأيام السابقة كلها منذ عاد إلى بيت أبيه من باريس كما

بمضيها الآن ، لم يكن يتألم كثيراً من الفراغ ولا من البطالة .. كيف كان إذن يمضي وقته من ساعة استيقاظه وحتى نومه ؟

كان يتسكع على رصيف الميناء في ساعات المذ ، يتسكع في الطرقات ، يتسكع في المقاهي ، يضيع وقته عند ماروفسكو ، في كل مكان . وفجأة ، وإذا بهذه الحياة التي كان يعانيها حتى الآن ، تصبح كريمة إليه ، لا تختمل . لو أن لديه بعض المال لاستأجر سيارة في نزهة ريفية طويلة يسير بها على طول الحفر المظلمة بشجر السنديان والدردار ، ولكنه صار يحسب ثمن كأس الجعة وسعر طابع البريد ، ولا يُسمح له بتخييل مثل تلك الرغبات . وقال لنفسه فجأة : ما أقسى هذا ، أكثر من ثلاثين سنة مضى عليه وهو يتجمل من أمه مضطراً من وقت لآخر أن يسألها جنياً . وتتم وهو يحك الأرض بطرف عصاه : يا للجنة ! لو أن معي المال !

ومن جديد وكلسعة الزنبور ورد إلى خاطره التفكير بميراث أخيه ، لكنه أبعد عنه بصبر نافذ ، وما أحب أن ينساق إلى منحدر الحسد . كان حوله أطفال يلعبون على تراب الممرات الناعم ، شقر ذوو شعور طويلة وكانوا يصنعون جادين مهتمين جبلاً من الرمل ليسحقوها بعدئذ بضربة من قدم . كان يبير في ذلك اليوم مكتئباً ، ينظر إلى زوايا روحه كلها فرأى طياته تهتز .. وقال في نفسه : إن أعمالنا تشبه تصرفات هؤلاء الأولاد . ثم تساءل : أليس من الحكمة البالغة في الحياة أن ينجب المرء اثنين أو ثلاثة من هذه الكائنات غير المفيدة ، ويبصرها تكبر بتسامح واهتمام . ولمسته رغبة في الزواج . ولا يضيع الإنسان إلى تلك الدرجة إذا استطاع أن يتخلص من وحدته ، يسمع في

ساعات الضيق والقلق حركة أحد قريباً منه على الأقل ، وما أحسن أن يقول
لامرأة عندما يشعر بالألم (يا عزيزتي) . وأخذ يفكر بالمرأة . كانت معرفته
بالساء بسيطة ، وكان له صلات بهن محدودة في الحي اللاتيني ، امتدت
أسبوعين وانتهت عندما خسر مصروف الشهر ، ثم استأنفها في الشهر التالي
فحلت محلها صلات جديدة . لا بد أن هناك مخلوقات طيبات جداً ،
ناعمات جداً ، مواسيات جداً ، أليست أمه العقل والسحر في منزل أبيه ؟
كم يود لو يتعرف على امرأة ، امرأة حقيقية !

وقام فجأة مصمماً على الذهاب لزيارة السيدة روزميلي . ثم أحجم
بغته . هذه المرأة تكدره ! لماذا ؟ إن لها عقلاً سوقياً مبتدلاً ، ثم ألا تبدو له أنها
تفضل جان ؟ ولم يعترف لنفسه بشكل واضح أن هذا التفضيل هو السبب
الأساسي في احتقاره للدكاء الأرملة ، لأنه وإن كان يحب أخاه فلم يكن
ليستطيع أن يمتنع عن الحكم عليه بأنه متوسط الدكاء ، ويعتقد بنفسه أنه
الأرفع . ومع ذلك فلن يبقى هناك إلى الليل . وتساءل بقلق كالأمس : « ماذا
سأفعل ؟ » .

وشعر عندئذ بأن روحه تحتاج إلى حنان ، إلى احتضان وتعزية ، وعم
تعزيته ؟ إنه لا يدري مايقول . كان في ساعة من ساعات الضعف والكسل
التي يبدو إلى القلوب فيها ضرورة وجود امرأة ، مداعبة امرأة .. لمسة من يد ،
مس من فستان ، نظرة حلوة من عين سوداء أو زرقاء ، يبدو ذلك ضرورياً
جداً والآن .

وخطرت له ذكرى فتاة عاملة في أحد المقاهي ، كان صاحبها إلى بيتها ذات مساء ، ثم كان يراها من حين إلى آخر . فقام من جديد ، ومضى ليشرب كأس بيرة معها . ماذا سيقول لها ؟ ماذا ستقول له ؟ لا شيء بدون شك . لا بأس ! أمسك إحدى يديه بالأخرى لحظات ! وبدا له أنها تميل إليه . لماذا لا يراها إذن ؟ .. وجدها مسترخية على كرسي في صالة المقهى الفارغة تقريباً ، كان ثلاثة من الشاربين يدخنون الغليون مستندين بمرافقهم على طاولات السنديان ، وعاملة الصندوق تقرأ رواية ، بينما استغرق رب العمل في نومه على مقعد صغير دون أن يرتدي سترته .

وحينما لمحت الفتاة ، قامت بحموية ، وأسرعت إليه قائلة :

— أهلاً بك ، كيف حالك ؟

— بخير ، وأنت ؟

— أنا ، على أحسن ما يكون . ما أقل مجيئك إلى هنا ؟

— نعم ، ليس لدي كثير وقت ، تعلمين أنني طبيب .

— صحيح ! لم تخبرني بذلك . لو كنت أعلم — فقد تأملت

الأسبوع الماضي — لكنت استشرتك . ماذا تريد أن تأخذ ؟

— كأساً من البيرة ، وأنت ؟

— أنا كأساً من البيرة أيضاً ، مادمت ستدفع عني .

وأخذت تحدّثه دون أن تستعمل عبارات الاحترام، كما لو كان تقديم هذا الشراب إذناً ضمناً بترك الكلفة. جلسا يتحدثان وجهاً لوجه، وكانت من وقت لآخر تأخذ بيده بألفة بسيطة كما تفعل الفتيات اللواتي يعرضن لطفهن للبيع. ونظرت إليه بعيون جذابة وقالت:

— لماذا لا تأتي أكثر؟ أنت تعجبني كثيراً يا حبيبي.

وبدا يشمئز منها، رآها حمقاء عامية شعبية. وقال في نفسه: يجب أن تظهر النساء لنا في الأحلام، أو في حالة من الترف تزين ابتذالهن.

وسأله:

— أكنت منذ أيام صباحاً مع فتى جميل أشقر ذي لحية طويلة، أهو أخوك؟

— نعم، هو أخي.

— إنه حقاً لفتى جميل.

— أترين ذلك؟

— طبعاً، ثم إنه لذو هيئة مريحة جداً.

أية رغبة غريبة دفعته فجأةً ليقصّ على عاملة المقهى هذه حكاية ميراث جان؟ لم هذه الفكرة التي ألقى بها من نفسه عندما كان وحيداً، والتي دفعها خوفاً لئلا تنزعج روحه، أجاءت على شفّيته اللحظة؟ ولماذا

تركها تسيل كما لو كان محتاجاً إلى أن يفرغ من جديد أمام شخص ما مرارة قلبه الطافح؟ فقال وهو يضع رجلاً على أخرى:

— لقد كان أخي ذا حظ بهيج، فورث دخلاً يبلغ ٢٠ ألف فرنك.

فتفتحت عينيها الزرقاوين الطماعتين باتساع بالغ وقالت:

— أوه، ومنذا الذي خلف له هذا كله؟ جدته أم خالته؟

— لا، صديق عجوز لأبوي.

— ماهو إلا صديق؟ غير معقول! ألم يخلف لك شيئاً؟

— لا، أنا كنت أعرفه معرفة قليلة جداً.

وفكرت لحظات ثم قالت باهتسامة غريبة على شفثيها:

— عظيم، إن أخاك لمحظوظ في اكتساب أصدقاء من هذا النوع! حقاً، ليس عجباً أن يشبهك شياً قليلاً!

وتملكته رغبة في أن يصفعها دون أن يدرك بالضبط لماذا؟ وسأل وفمه متشنج:

— ماذا تقصدين بهذا؟

فاتخذت سحتها شكلاً غيماً ساذجاً. وقالت:

— أنا ؟ لا شيء . أريد أن أقول إنه أكثر حظاً منك .

ورمى بعشرين قرشاً على الطاولة وخرج . جعل يردد قولها : « ليس عجباً أن يشبهك شهباً قليلاً » بم فكرت ؟ ماذا كانت تضمّر بهذه الكلمات ! إن هنا بالتأكيد لمكراً ، لشرّاً ، لعيياً . نعم يجب أن تكون هذه الفتاة اعتقدت أن جان ابن مارشال .

وأحس بالتأثر ، وصدمه الشك الذي اتهمت به أمه ، حتى إنه توقف عن المشي ، وبحث بعينه عن مكان يقعد فيه . وجد مقهى آخر قبالة فدخله وأخذ كرسيّاً ، ولما جاء النادل إليه قال :

— كأساً من البيرة .

شعر بقلبه بضرب ، وأحس بقشعريرة تنتابه ، فتجري على جلده . وفجأةً خطر له ما قال مارووسكو ليلة البارحة : « لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً » أكانت الفكرة ذاتها لديه ، أراوده شك الفاجرة نفسه ؟ كان رأسه منحنيّاً على كأس البيرة ، ينظر إلى الرغبة البيضاء التي تفور وتختفي ، وتسأل : « أمن الممكن أن يعتقدوا بالأمر ذاته ؟ » .

وظهر له العقلان اللذان ولّدا هذا الشك القبيح في النفوس ، ظهر له الآن الواحد بعد الآخر واضحين ، جليين ، غائظين ، لا شيء أكثر بساطة وطبيعية من أن يترك عجوز أعزب لا وريث له ، أن يترك ثروته لولدي صديقه ، ولكن أن يعطيها لواحد من هذين الولدين ، فإن الناس بالطبع

سيندهشون، سيهمسون متتهين إلى ابتسامة. كيف لم يتكهن هو بهذا، كيف لم يشعر به أبوه، كيف لم تكشفه أمه؟ كلا، إنهم كانوا سعداء جداً بهذا المال غير المنتظر للدرجة لم تراودهم معها هذه الفكرة. ثم كيف يستريب هؤلاء الناس الشرفاء بالخزي نفسه؟ ولكنّ الناس، الجار، البائع، البقال، كل هؤلاء الذين يعرفونهم، ألا يرددون هذا الشيء المقيت، يتسلون به، يتلهون، يضحكون من أبيه، يزدرون أمه؟

وستضرب الملاحظة التي أبدتها الفتاة المقهى أن حان أشقر وهو أسمر، وأنهما لا يتشابهان، لا في السحنة ولا في المشية ولا في الهيئة ولا في الذكاء، ستضرب على العيون كلها، وعلى الأذهان كلها. عندما سيتحدثون عن ابن رولاند سيقولون: «أبيهما الحقيقي، وأبيهما المزيف؟».

وقام على قرار أن يتدارك أخاه لينبهه على هذه الإهانة الخطيرة البشعة لشرف أمهما. وما الذي سيفعل جان؟ جان البسيط جداً. سيفرض بالتأكيد الإرث الذي سيذهب حينئذ للفقراء، وعندها يقول للأصدقاء والمعارف الذين يعلمون بهذه الهبة: إن الوصية تحتوي على بنود وشروط غير مقبولة، فهي لا تجعل جان وارثاً بل مؤثماً.

كان يفكر وهو يدخل إلى بيت أبيه كيف يستطيع أن يخلو بأخيه، فلا يتكلم أمام أبيوه يمثل هذا الموضوع. وسمع عند الباب لفظاً لأصوات وضحكات في الصالة، ولما دخل سمع صوت السيدة روزميلي والكاتبين بوسير يصطحبهما أبوه ويدعوهما إلى العشاء للاحتفال بالخبر السار.

حمل النبيذ الأبيض وحمور الأبنست لفتح الشهية ، فأخذ الجميع
الفرح بادئ ذي بدء . الكابتن بوسير رجل قصير مدور تماماً لكثرة
ما تدرج على البحر ، كانت أفكاره كذلك تبدو مدورة كلها مثل حصي
الشيطان يضحك ضحكاً فيه كثير من حرف الراء تملأ الحلق ، يحكم على
الحياة بأنها شيء ممتاز ، وكل شيء عنده يصلح للتناول . دق كأسه بكأس
الأب رولاند ، بينما كان جان يقدم للمرأتين كأسين مملوءتين .

رفضت السيدة روزميلي الشراب ، فصاح الكابتن بوسير الذي كان
يعرف زوجها المتوفى وقال :

— هيا ، هيا يا سيدتي ، مثلما كنا نقول في لهجتنا : « ما أبهج الأشياء
التي تتكرر مرتين »^(١) يعني أنه لا بأس بكأسين من النبيذ الأبيض . أقول
لك : إنني منذ لم أعد أبخر صرت أتناول مثل هذا كل يوم قبل العشاء ،
ضريتين أو ثلاثاً من الترخ المصنوع ! أضيف إليها احترازة بعد القهوة ، مما
يجعلني بحراً هائجاً خلال المساء ، ولكنني لا أمضي أبداً حتى العاصفة ،
أبداً ، أبداً ، لأنني أخاف العطب .

وضحك رولاند الذي أثنى الكابتن العجوز على هوسه البحري ،
ضحك من كل قلبه ، وقد احمر وجهه وتعكرت عينه من شراب الأبنست .
كان بطنه كبيراً كبطن صاحب الدكان ليس إلا بطناً ، تبدو معه بقية
أعضاء الجسم لاجئة إليه ، واحداً من هذه البطون الرخوة للرجال الذين

(١) مثل لانيي .

يألفون القعود دائماً فلم يبق لهم فخذ ولا صدر ولا ذراع ولا رقة . كل مادة
جسمهم تتكدس في مكان بدايته يجثم على مقر كرسيمهم .

وكان بوسير على العكس منه ، فبرغم قصره وضخامته ، بدا ممتلئاً
كالبيضة ، قاسياً كالكرة .

ولم تنته السيدة رولاند من كأسها الأول ، كانت متردة اللون من
السعادة تلتصع نظرتها ، وهي تتأمل ابنها جان .

وتفجرت عند جان أزمة من البهجة ، لقد انتهى أمر التوقيع ، وبات
يملك عشرين ألف فرنك من الإيرادات . كانت تصرفاته توحى بالاعتزاز
الذي يمنحه المال لصاحبه ، كان يضحك ، يتكلم بصوت عالي الجرس ،
ينظر إلى الناس بصفاء شديد وثقة كبيرة .

أعلن عن بدء العشاء ، وعندما جاء رولاند العجوز ليقدّم ذراعه
للسيدة روزميلي صاحبت زوجته :

— لا ، لا ، أيها الأب ، كل شيء اليوم لجان .

كان يتفجر على المائدة ترف غير مألوف : فأمام صحن جان وقد
جلس في محل أبيه وضعت باقة ورد ضخمة مملوءة بعقد من شرائط الحرير ،
باقة حقيقية للاحتفال ترتفع كقبة مزينة أحاطت بها أربعة أطباق كبيرة من
الفاكهة في الأول هرم دراق فاخر ، وفي الثاني قالب كاتو ضخّم مفعم
بالقشدة المخفوقة مغطى بالأجراس والسكر المذاب ، وكاتدرائية من

البسكويت ، وفي الثالث قطع من الأناناس غارقة في شراب صاف ، وفي الرابع عنب أسود فاخر غريب جيء به من البلاد الحارة .

قال بيير وهو يجلس :

— عجباً ! نحن نحتفل بجان الغني !

وقدمت بعد الحساء مخمرة المادير ، وكان الجميع يتكلمون في آن واحد ، وكان بوسير يقصّ على المائدة كيف حضر بجزيرة (سانت دوماغ) في (هايتي) طعام جنرال زنجي . وكان الأب رولاند يستمع إليه باحثاً كل البحث عن مكان ينزلق فيه بين الجمل ، فحكى له قصة وليمة أقامها أحد أصدقائه في (ميدون) ، مرض كل ضيف بعدها خمسة عشر يوماً . وتحدثت السيدة روزميلي وجان وأمه عن مشروع نزهة وغداء في قرية (سان جوان) وأملوا فيها متعة لا تنتهي . وود بيير لو أنه تناول عشاءه مفرداً في مطعم متواضع على شاطئ البحر ، إذن لتجنب هذا الضجيج كله ، وهذه الضحكات ، وهذه البهجة المهيجة . وبحث عن السيل التي تمكنه أن يحدث أخاه عن مخاوفه ، فيجعله يتخلى عن الثروة التي قبلها وفرح بها وانتشى منها سلفاً ، سيكون ذلك بالتأكيد قاسياً عليه . ولكنه يجب أن يفعله ، إنه لا يستطيع التردد ، فسمعة أمهما معرضة للمهانة .

واندفع رولاند في قصص الصيد عندما وضعت سمكة كبيرة من سمك القاروس وقصّ بوسير حكايات مدهشة عن (الغابون) وعن (سانت ماري) في مدغشقر ، وحكى بشكل خاص عن شواطئ الصين واليابان

حيث للأسماك وجوه ظريفة كوجوه البشر. صور ملامح وجوهها، عيونها الضخمة الذهبية، بطونها الزرقاء أو الحمراء، زعانفها الغريبة التي تشبه المراوح، أذناها المقصوفة كالأهلة. كان يومئذ وهو يتحدث بطريقة ممتعة جداً جذبت الجميع وضحكوا وهم يصغون إليه بدموع. وكان بيير الوحيد الذي يبدو منكراً لما يرى ويسمع، وتتم: «لأنه لمن الحق ما يقال من أن النورماندين هم غاسكونيو الشمال^(١)». وبعد السمك جاءت الشطائر، ثم دجاجة مشوية وسلطة وفاصولياء خضراء وفطيرة بلحم العصفائر من مدينة (بتي قيه). وكانت خادمة السيدة روزميلي تساعد في الضيافة، وارتفع السرور بعدد كؤوس الخمرة.

وعندما نزع غطاء زجاجة الشمبانيا الأولى اهتز الأب رولاند بشدة، وقلّد بفمه صوت فرقعتها ثم صرح يقول:

— إنني أحب هذا الصوت أكثر من صوت صرّة المسدس.

وبسخرية ردّ بيير الذي زاد انزعاجه فقال:

— غير أن هذا الشراب ربما يكون أكثر خطراً عليك.

فتساءل رولاند الذي كان يهيم بالشراب فوضع كأسه المملوءة على

المائدة:

(١) الغاسكونيون: جماعة كانت تسكن جوب غرب فرنسة تشتتر مقصصها الحياتية الخرافية.

— ولماذا؟

كان الأب رولاند منذ مدة طويلة يشكو من صحته ، من الثقل ، من الدوار ، من انحراف المزاج الدائم الغامض . فأجاب الطبيب :

— لأن رصاصة المسدس يمكن أن تمر بقربك ، بينما تخرقك كأس الحمر بعنف في بطنك .

— وثم ؟

— وثم ، تشتعل معدتك ، ويرتبك جهازك العصبي ، وتنقل الدورة الدموية ، وتتهبأ للسكتة الدماغية التي تهدد كل الرجال مم هم على مثل مزاجك .

وتبددت النشوة المتنامية لدى الصائغ القديم كسحابة دخان أتت عليها الرياح ؛ فنظر إلى ابنه بعينين قلقتين ثابتتين يريد أن يفهم إن كان جاداً لا يسخر . ولكن بوسير صاح يقول :

— آه ، ما ألعن هؤلاء الأطباء . دائماً يقولون أشياء معينة : لا تأكل ، لا تشرب ، لا تحب ، لا ترقص في دائرة .. كل هذا يجلب الـ (واوا)^(١) للصحة . حسناً ، أنا فعلت هذا كله بنفسى ياسيدي ، في كل

(١) الواوا: المرض في لغة الأطفال .

أنحاء العالم، في كل مكان، حيثما استطعت، وأكثر مما استطعت، ولم يصبني شر.

فأجاب بيير بمرارة:

— أولاً، أنت أيها الكابتن، أنت أقوى من أبي، ثم إن كل المجننين يتكلمون مثلك حتى اليوم الذي.. ثم لا يستطيعون غداً أن يعودوا ليقولوا للطبيب المتبصر: «أنت على حق أيها الطبيب». من الطبيعى أن أنه أبي عندما أراه يفعل بنفسه أسوأ شر وأخطره. سأكون ولدًا عاقاً لو تصرفت على غير هذه الشاكلة.

وتدخلت السيدة رولاند بخجل وقالت:

ما بالك يا بيير؟ لن يحدث الضرر من مرة واحدة، فكر: كم عيداً عنده؟ كم فرحة عندنا؟ إنك تفسد المسرات كلها وتكدرنا كلنا، إنها مشاجرة هذه التي تفعلها.

فتمتم وهو يهز كتفيه:

— ليفعل ما يريد، فأنا أحذره.

ولكن الأب رولاند لم يشرب. كان ينظر إلى كأسه. كأسه المملوءة بالخمرة المتلافة الشقراء التي تخلق فيها روح خفيفة، روح مسكرة بفقاعاتها الصغيرة الصاعدة من عمقها، ترتفع عجل، مسرعة، ثم تتلاشى على

السطح. نظر إليها بحذر ثعلب وجد دجاجة ميتة واستراب في الفخ. سأل متردداً:

— أعتقد أن هذا سيحدث لي كثيراً من الضرر؟

وندم بير على ما قال، وقد أوتك أن يؤلم الآخرين بسبب مزاجه السيئ فقال:

— لا، هيا، تستطيع أن تشرب مرة واحدة، ولكن لا تتجاوز فيها الحدود ولا تأخذها عادة.

وعندئذ رفع الأب رولاند كأسه دون أن يصمم بعد على حملها إلى فمه. كان يتأملها بألم، برغبة، بخشية، ثم شمّها، تذوقها، شربها بجرعات صغيرة مستمتعاً بها وقلبه طافح بالانزعاج والضعف والشراسة. ثم أحس بالندم عندما تحسّى آخر قطرة.

وفجأة التقت عينا بير بعيني السيدة روزميلي، كانتا صافيتين، زرقاوين، مثبتتين عليه نظرة صافية قاسية. شعر وأدرك وحزر الفكر الحلي الذي يثير هذه النظرة، الفكر الساخط للمرأة الصغيرة ذات العقل البسيط المستقيم، لأن نظرتها كانت تقول: «أنت حسود يا هذا، وإنه لأمر مخجل». طأطأ رأسه وقد عاد إلى طعامه. لم يكن جائعاً، ووجد كل شيء سيئاً. وألحت عليه رغبة في الخروج، في ألا يكون وسط هؤلاء الناس، ألا يسمعون يتحدثون، ويتمتعون، ويضحكون.

ونسى الأب رولاند حينما بدأت الخمرة تعكره نصيحة ابنه ، ونظر بعين روراء حانية إلى زجاجة الشمبانيا وهي لا تزال مملأى قرب صحنه . ولم يجزؤ على لمسها خشية من توبيخ جديد . وبحث عن طريقة خبيثة نادرة تقوده إلى الشراب بغير أن يثير انتباه بيير . وخطرت له حيلة من أبسط ما يكون ، سيأخذ الزجاجة بلا مسالة ويمسكها من قعرها ، ويمد ذراعه خلال المائدة يملأ أولاً كوب الطبيب الفارغ ، ثم يديرها على الأكواب الأخرى ، وعندما يصل إلى كوبه هو سيأخذ في الكلام العالي ، وإذا صب فيه شيئاً فسيقسم مؤكداً أن ذلك سهو . ومع هذا فلن يتبه أحد .

وشرب بيير دون أن يفكر . وبحركة لاشعورية ، حمل في اللحظة وهو متوتر الأعصاب منزعج ، كوبه الزجاجي الطويل الساق الذي كان يرى فيه جريان فقاعاته خلال الشراب الحيوي الشفاف . وصبه بعدئذ ببطء في فمه فأحس بلذغة خفيفة ذات حلوة يحدتها العاز المتبخر على لسانه .

وشياً فشيئاً امتلأ جسمه بحرارة حلوة ، خارجة من بطنه ، تشبه حرارة الموقد ، فاستولت على صدره ، ثم انتشرت في أعضائه ، وانصببت في سائر حسده كأنها موجة فاترة ، حملت معها الفرح شعر معها بالتحسن وأمسى أقل قلقاً ، وحف استياؤه ، وضعف قراره في أن يكلم أحاه العشيّة ، لأنه تنازل عن الفكرة ، بل لئلا يعكّر سريعاً متعة أحسها في ذاته .

وقام بوسير ليشرب نخباً ، فقال وهو يحمي الحاضرين الجالسين على كل الجهات .

— أيتها السيدات اللطيفات ، أيها السادة ، إننا مجتمعون لنحتفل بالحدث السعيد الذي أصاب واحداً من أصدقائنا . كان يقال من قبل : « إن الثروة عمياء » وأنا أعتقد أنها كانت ببساطة قصيرة النظر أو عفريته ، وأنها قد اشترت منظاراً بحرياً ممتازاً ، سمح لها أن تميز في ميناء الهافر ابن صديقنا الطيب رولاند ، قبطان مركب اللؤلؤة .

وانطلقت من الأنواء استحسانات مشفوعة بتصفيق من الأيدي ، فقام الأب رولاند ليحجب . وبعد أن سعل ، لأنه كان يشعر بحلقه متلرججاً ، ولسانه ثقيلاً . تلعم في كلامه ، وقال :

— شكراً أيها الكابتن ، شكراً لك عن نفسي ، وبالنيابة عن ولدي . لن أنسى مطلقاً سلوكك في هذا الظرف . إنني أشرب نخب رغباتك .

وامتلاأت عيناه وأنفه بالدموع ، وجلس وهو لا يجد كلاماً يزيد عليه . وأخذ جان الحديث بدوره وكان يضحك فقال :

— أنا الذي يجب أن أشكر هنا الأصدقاء المتفانين ، الأصدقاء الممتازين ، (ونظر إلى السيدة روزميلي) الذين أعطوني اليوم برهاناً على المودة يؤثر في النفس ، ولكن لا أستطيع أن أعبر لهم عن شكري بالكلمات ، سأثبت لهم ذلك غداً ، في كل لحظات حياتي ، دائماً .. لأن صداقتنا ليست كالصداقات التي تزول .

وتمتمت أمه بتأثر شديد : « حسن جداً يا ولدي » وصاح بوسير :

— هيا ياسيدة روزميلي، تكلمي باسم الجنس اللطيف .

فرفعت كأسها، وقالت بصوت لطيف متدرج قليلاً في الحزن :

— إنني أشرب نخب الذكرى المباركة للسيد ماريشال .

فخيمت لحظات من هدوء، من تأمل محتشم، كتلك اللحظات التي تكون عادة بعد الصلاة . وأبدى بوسير — وله قدرة على كلام التهئة السيال — هذه الملاحظة :

— ليس كالنساء في إظهار اللطف .

ثم قال وهو يستدير نحو الأب رولاند :

— حقاً ! ماذا كان ماريشال هذا ؟ أكت على مودة معه ؟

وشرع العجوز الذي أثاره السكر بالبكاء وقال في صوت متدلجلج :

— إنه أخ .. أنتم تعرفون .. لم يبق في الدنيا واحد من مثله .. لم نكن نفترق .. كان يتعشى في بيتنا كل مساء .. وكان يدعونا إلى المسرح .. لا أقول لكم إلا هذا .. إلا هذا .. إلا هذا .. صديق .. حقيقي .. حقيقي .. أليس كذلك يا لوبز ؟

فأجابت زوجته ببساطة :

— بلى، كان صديقاً أميناً .

كان يبصر ينظر إلى أبيه وأمه . ثم عاد إلى الشراب حينما تغيّر الحديث .
ولما انتهت هذه الأمسية ، لم يعد يذكر منها إلا القليل .

تناول المدعوون القهوة ، وارتشفوا النبيذ ، وضحكوا من الفكاهات .
ثم آوى هو إلى فراشه في نحو منتصف الليل ، مضطرب الذهن ، ثقل
الرأس ، فنام كالهيمة حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي .

كان النوم السابح بالشمبانيا وبشراب الرهبان الشرترينين قد لطف مزاجه وهدأه ، لأنه استيقظ في حالة نفسية متساحة جداً . كان وهو يرتدي ثيابه يقدر انفعالاته خلال سهرة الأمس ، يزنها ، يلحصها باحثاً بوضوح شديد ، وعلى وجه تام في أسبابها الشخصية ومسبباتها الخارجية في الوقت ذاته .

يمكن فعلاً لفتاة المقهى أن تفكر بفكرة شريفة ، فكرة جديدة بعاهرة عندما تسمع أن ولداً واحداً من ولدي رولاند ورث من رجل غير معروف ، ولكن ، ألا تراود هؤلاء النسوة المبتذلات دائماً ظنون مماثلة بالنساء الترفيات دون ظل من سبب ؟ ألا يتحدثن دائماً ، يشتمن ، يفترين ، يقدحن بأولئك اللواتي يعرفن ألا عيب فيهن ؟! ينزعجن في كل مرة تذكر فيها أمامهن امرأة طاهرة ؟ كما لو أن أحداً شتمهن ، ويصحن قائلات : « آه ، أنت تعلم ، إنني أعرفهن ، النساء المتزوجات هؤلاء ، هذا عيب .. إن لديهن من العشاق أكثر

مما لدينا، هن فقط يخفيهم، لأنهن منافقات. آه! نعم.. هذا عيب!». ولو كان هو نفسه في أي مناسبة أخرى غير هذه لما فهم بالتأكيد، الافتراض المحتمل ذاته لتعريضات من هذا النوع بأمة المسكينة، الطيبة جداً، البسيطة جداً، الفاضلة جداً، ولكنه ذو روح عكرتها حميرة الحسد الذي تهيّج فيه. عقله الساخط متربص ليقول ذلك، وليقول كل ما يقتدر به على إيذاء أخيه، فأعاره لبائعة البيرة بالرغم منه، أعطاه نيات وقحة لم تكن عندها.

يمكن أن يكون خياله وحده هو الذي خلق هذا الشك، أوجد هذا الشك الخفيف، خياله الذي يفر على الدوام من إرادته، فلا يستطيع أن يسيطر عليه، سيذهب هذا الخيال حراً جريئاً مغامراً ماكرًا في كون الأفكار اللانهائي، ويحمل من هذه الأفكار بعض الأحيان ما لا يخص من المخجلات التي يخبئها في نفسه، في أعماق روحه، في الثنايا التي يتعذر سبرها، يخبئها كأشياء مسروقة. إن لقلبه ولا شك أسراراً تختبئ دونه. وهذا القلب الجريح، ألم يجد في الشك المقيت وسيلة لحرمان أخيه من الميراث الذي حسده عليه. إنه ارتاب بنفسه هو الآن، وتساءل كما يسأل النساك ضمائرهم، تساءل عن أسرار فكره كلها.

إن للسيدة روزميلي فطنتها، رغم ذكائها المحدود، هي فطنة النساء وإدراكهن الثابت، ومع ذلك فلم تخطر ببالها هذه الفكرة، لأنها شربت ببساطة تامة نخب الذكرى المباركة للمرحوم ماريشال. وما كانت لتفعل هذا

لو لأمسها أدنى شك . إنه الآن لا يشك . إن استيائه غير الإرادي من الثروة الهابطة على أخيه وثقته بأمه وحبه الديني لها نزه وساوسه ، وساوسه التقية المحترمة التي بالغ بها .

وسرّ لصياغة هذه النتيجة ، سرور من يفعل المعروف ، وقرر أن يبدو لطيفاً مع الناس كلهم ، بادئاً بأبيه الذي كان يسخط عليه باستمرار لعاداته المستكرهة وتأكيداته الحمقاء ، وآرائه المبتذلة وغبائه المكشوف المفضوح .

عاد إلى البيت على موعد الغداء ، تلمظ مع الأسرة كلها بطرائفه ومزاحه الطيب . قالت له أمه مفتونة : « عزيزي بيرو ، إنك لا تدري كم أنت ظريف ولطيف عندما تريد ذلك » .

تلاعب بالكلام ، أضحك الآخرين بأوصاف أصدفائهم التي أبدعها بمهارة ، عرض بوسير للسخرية ، وتناول السيدة روزميلي قليلاً ، ولكن يحذر من غير أن يسيئ أخاه . وقال في نفسه وهو ينظر إلى أخيه : « ولكن ، دافع عنها إذن يا مغفل ، إنني أستطيع رغم غناك أن أتفوق عليك متى أريد » . وقال لأبيه عندما كانوا يشربون القهوة :

— هل ستستعمل مركب اللؤلؤة اليوم ؟

— لا يا ولدي .

— هل أستطيع أن آخذه مع جان بارت ؟

— بالطبع، كما تريد.

اشترى سيكاً فآخرأ من أول دكان تبع لقيه . ونزل بخفة نحو الميناء .
كانت السماء صافية مضيئة بلونها الأزرق الفاتح يرطبها نسيم البحري
ويغسلها . وكان البحار باباغري الملقب بجان بارت نائماً في أسفل المركب ،
وكان يجب عليه أن يجهز نفسه للخروج كل يوم عند الظهيرة إذا لم يحضر
للصيد في الصباح .

وصاح بيير :

— هيا ياريس .

فأنزل السلم الحديدي وقفز إلى المركب . قال بيير :

— من أين الريح اليوم ؟

— الريح دائماً من البر يا سيد بيير . وهناك نسيم ناشط في عرض
البحر .

— حسناً، هيا يا عم .

رفعا شراع المقدمة ، وجذبوا المرساة ، فأخذ القارب الحر ينزلق ببطء
نحو الرصيف الجانبى فوق ماء الميناء الهادئ . وهب هواء ضعيف آت من
خلال الطرقات على أعلى الشراع ، كان خفيفاً جداً بحيث لم يكن أحد
يشعر به ، وبدا مركب اللؤلؤة متحركاً بحياة خاصة من حياة المراكب ،

مدفوعاً بقوة خفية مختبئة فيه . وأمسك بيير الحاجز والسيكار بين أسنانه . كانت عيناه نصف مغمضتين تحت أشعة الشمس الباهرة ، وأخذ ينظر إلى قطع الخشب الضخمة المقطونة لكاسر الأمواج تمر تجاهه .

وعندما انطلق المركب إلى عرض البحر ، وبلغ آخر الرصيف الجانبي الشمالي الذي كان يحميه انساب على وجه الطبيب وعلى يديه نسيم رطب كان كأنه مداعبة ، نسيم بارد قليلاً دخل إلى صدره فانفتح بتهدة طويلة ملأت فمه . وانبسط الشراع البني ، فانفتح وأمال مركب اللؤلؤة وجعله أكثر خفة . وفجأة رفع جان بارت الشراع المثلث الأمامي فامتلاأت أقسامه الثلاثة بالهواء وأشبه جناحاً ، ثم ارتد إلى الوراء خطوتين ، وفك شراع المؤخرة المربوط بالسارية .

وانبعثت فجأة على جانب المركب المستقر ضجة الماء الفاتر الهارب حلوة نشيطة وجرى بكل سرعته .

كانت مقدمة السفينة تفتح البحر كأنها سكة محراث مجنونة ، واليم المرتفع الناعم الأبيض من الزبد يمور وينزل من جديد كنزول تراب الحقل عند الحرارة أسمر ثقيلاً .

وكان مركب اللؤلؤة في كل موجة يلقاها — وكانت الموجات قصيرة قريبة — يهتز هزة من طرف الشراع المثلث حتى دفعة القيادة التي جعلت ترتجف في يد بيير . واشتد هبوب الرياح خلال لحظات فلمست الأمواج جانب المركب ، وهذا كما لو أنها ستغطي المركب كله . وكانت إحدى البواخر

التي تسير بالفحم الحجري والقادمة من (ليفربول) راسية بانتظار المد . ذهباً
يدوران إلى الخلف ثم زارا أحدها بعد الآخر سفينة في المرسى . ثم ابتعدا
قليلاً ليشاهدا الشاطئ الممتد .

تنزه بيير فوق المياه المرتجفة خلال ثلاث ساعات وهو ساكن هادئ
مسرور ، كان كطير سريع لين الحركة يقود هذا الشيء المصنوع من الخشب
والقماش والذي يذهب ويأتي على هواه تحت ضغطه من أصابعه .

واستغرق بأحلامه كما يحلم الناس وهم على ظهر حصان أو على
سطح سفينة ، وفكر بمستقبله الباهر ، وفكر بعذوبة الحياة مع الذكاء ،
سيطلب غداً من أخيه ١٥٠٠ فرنك قرضاً لثلاثة أشهر ، ويستقل حالاً في
شقة شارع فرانسوا الأول الفخمة .

قال البحار فجأة :

— ياسيد بيير ، هو ذا الضباب ، يجب علينا العودة .

ورفع بيير عينيه ، فلمح في الشمال ظلاً رمادياً سميكاً خفيفاً يملأ
السما ويغطي البحر ، يسرع نحوهم كغيمة هابطة من شاهق .

غير من اتجاهه ، ودفعته الريح الخلفية نحو رصيف الميناء الجانبى ،
يتبعه الضباب السريع الذي لحق به ، وحالما بلغ الضباب مركب اللؤلؤة
غلفه في كثافته غير المحسوسة ، وجرت على أعضاء بيير قشعريرة من البرد ،
وأجبرته رائحة الدخان والعفن ، رائحة الضباب البحري الغريبة أن يغلق فمه

لغلا يستطعم السحابة الرطبة الباردة . وعندما أخذ المركب مكانه المعتاد في المرفأ كان البخار الرقيق يكفّن المدينة كلها ويرطبها كرهاذ المطر . وانزلق على المنازل والطرقات كنهر يسيل .

عاد بيير إلى البيت بسرعة وقد تجمدت قدماه ويداه ، فاستلقى على سريره ورقد حتى العشاء . وعندما كان في غرفة الطعام سمع أمه تقول لجان :

— سيكون البهو رائعاً ، سنضع فيه زهوراً ، سوف ترى . سأتعهد صبياتها وتجديدها ، سيبدو البهو رائعاً جداً عند الحفلات .

وسأل الطبيب .

— عم تحدثين يا أمي ؟

— عن شقة فاخرة استأجرتها لأخيك ، لُقِيّة ، طابق أرضي يطل على طريقين . صالتان وهو بواجهة زجاجية وغرفتا طعام صغيرتان في جناح مستدير . إنها شقة لطيفة تصلح لعروس .

وامتقع لون بيير ، وشدّ الغضب على قلبه ، وقال :

— وأين هذه الشقة ؟

— في شارع فرانسوا الأول .

زال شكه بما سمع ، جلس ، كان حانقاً إلى درجة كبيرة بحيث تملكه

رغبة في أن يصبح قائلاً: «هذا غاية القسوة! أليس في الدنيا شقق إلا له!». وكانت أمه تتكلم باستمرار وألقى، قالت:

— تصور أنني استأجرتها بألفين وثماتمة فرنك. كانوا يريدون بها ثلاثة آلاف ولكنني استطعت تخفيض المبلغ مائتي فرنك، بعقد لثلاث سنوات أو ست أو تسع. وستكون الشقة مناسبة لأخيك. يكفي أن يكون الوضع الداخلي أنيقاً ليكسب المحامي ثروة. وهذا ما يجلب الزبائن، يفتنهم، يحتفظ بهم، يفرض عليهم الاحترام، يفهمهم أن رجلاً في منزل كهذا جدير بالتقدير إن طلب أجراً ضخماً لكلامه.

وسكنت لبضع ثوان ثم استأنفت تقول:

— يجب أن نجد لك شقة شبيهة بها، متواضعة، لأنك لا تملك شيئاً، لطيفة، على كل حال، وأؤكد أنك ستنتفع كثيراً بها.

فأجاب بيير بلهجة احتقار:

— أوه! أما أنا، فلن أنجح إلا بالعلم والعمل.

واستأنفت أمه تقول:

— نعم، ولكنني أؤكد لك أن الشقة الجميلة ستخدمك أكثر مع هذا.

وسأل فجأة عند منتصف الوجبة:

— كيف عرفتم ماريشال هذا؟

فرجع الأب رولاند رأسه وبحث في ذكرياته قائلاً:

— رويداً، لأنني لم أعد أذكر كثيراً. إن ذلك قديم جداً. آه، أجل،
إن أمك هي التي تعرفت إليه في الدكان، أليس كذلك يا لويز؟ كان قد جاء
يطلب شيئاً ما. ثم كان يأتي غالباً. عرفناه زبواً قبل أن نعرفه صديقاً.

واستأنف بيير الذي كان يأكل حبات من الفاصولياء، يشكها حبة
حبة بطرف شوكة، كما لو كان يشك لحماً، واستأنف يقول:

— في أي زمن حصلت هذه المعرفة؟

فبحث رولاند من جديد، لكنه لم يتذكر شيئاً، وطلب إلى زوجته أن
تبحث في ذاكرتها:

— في أية سنة، ياربي، يا لويز، يجب ألا تكوني سببت، أنت
صاحبة الذاكرة القوية؟ ياربي، كان ذلك في .. في عام ٥٥ أو ٥٦؟
ولكن ابحتي إدن، يجب أن تعرفي أكثر مني؟

وبحثت بعض الوقت بجهد، ثم قالت بصوت واثق هادئ:

— كان ذلك في عام ٥٨ يا زوجي العزيز. كان بيير عندها في الثالثة
من عمره، أنا متأكدة أنني لم أخطئ، لأنها السنة التي أصابت الأطفال

فيها الحمى القرمزية، وكان مارشال — الذي لم نكن نعرفه بعد إلا قليلاً —
نجدةً لنا عظيمة.

فصاح رولاند:

— حقاً، حقاً، كان رائعاً، بل أكثر من ذلك! كان يذهب إلى
الصيد ليحضر الأدوية لك عندما لم تعد أملك بسبب ارهاقها تحتل
أكثر، وكنت أنا مشغولاً في الدكان. حقاً إنه لطيب القلب. ولا تتصور كم
كان سعيداً عندما شفيت، وكم كان يضمك إليه، ومنذ ذلك الوقت
أصبحنا أصدقاء حقيقيين.

ودخل هذا الخبر المفاجئ إلى نفس بيير كالرصاصة التي تنقب
وثقوب، فقال في نفسه: «مادام قد عرفني أول، ومادام اهتم بي كثيراً،
وأحبني وضمني إليه كثيراً، ومادامت سبب صلته الوثيقة بأهلي، فلماذا
ترك ثروته كلها لأخي ولم يترك لي شيئاً؟».

لم يسأل أكثر من ذلك، وظل مكتئباً، منهمكاً. وانشغل فكره
كثيراً، واحتفظ في ذاته بقلق جديد لا يزال الرشيم الخفي لشرو طرياً
ملتبساً.

خرج في ساعة مبكرة، وشرع يخبّ في الطرقات. وكان الضباب
الذي لا يزال يكفن المدينة يجعل الليل ثقيلاً، كثيفاً، يثير الغثيان، يشبه
دخاناً منتناً ضرب الأرض وانتشر عليها. رآه يمر فوق مصابيح الغاز فتبدو

للحظات وكأنها منطفئة . وأمست أوصفة الطرقات لزجة منزقة كما تكون عادة في أمسيات الصقيع . وبدا كأن الروائح الكريهة العفنة خرجت من بطون البيوت ، من الأقبية والحفر والبلايح والمطابخ الفقيرة لتختلط برائحة الضباب المتنقل البشعة .

ولم يشأ بيير — وقد كوّر ظهره ووضع يديه في جيبه — أن يبقى بالعرء ، في هذا البرد ، فذهب إلى ماروفسكو .

وتحت مصباح الغاز الساهر ، كان الصيدلي المعجوز ينام كعادته . وحينما رأى بيير الذي يحبه حب كلب أمين نفّض عنه حموله ومضى يحضر كأسين من شراب الكشمشين .

وسأل الطبيب :

— حسناً ، وأين صرت مع نبيلك ؟

وشرح له البولوي كيف أن أربعة من المقاهي الرئيسة في المدينة وافقت على طرحه في السوق . وأن جريدة (منارة الشاطئ) وجريدة (سيمافور) في الهافر كتبتا له إعلاتاً على أن يبادل به بعض الأدوية يصرفها للمحررين . وسأل ماروفسكو بعد صمت طويل إن كان جان عزم على امتلاك ثروته ؛ ثم سأل سؤاليين مبهمين أو ثلاثة حول الموضوع نفسه . وكان إخلاصه المجفل لبيير يثور من هذا التفضيل . واعتقد بيير أنه يسمع أفكاره ، يخمن ، يفهم ، يقرأ في عينيه الحائلتين ، في نبرة صوته المترددة الجمّل التي

تأتي على شفعية ولا يقوها، وما كان ليقوها، لأنه فطن جداً، حجل جداً، حذر جداً.

ولم يعد يشك الآن في أن العجوز يقول في نفسه : «ولماذا تتركونه يقبل هذا الميراث الذي سيجعل الناس يتكلمون بالسوء عن أمكما» . ومن يدري ! فرما يعتقد أن جان ابن ماريشال . يعتقد ذلك بالتأكيد ! كيف لا يعتقد ! وأمور عديدة تبدو محتملة ، ممكنة ، واضحة ! ولكن ، أما كان هو نفسه ، هو بيير الابن ، منذ ثلاثة أيام يصارع هذا الشك بكل قوته ، بكل دقة قلبه ليخدع عقله ؟ ألم يصارع ضد هذا الشك الرهيب !

ومن جديد ، وفجأة رغب أن يخلو بنفسه ليفكر ، لياقش القضية مع نفسه هو ، ليوافقه بقسوة وبلا وساوس ولاضعف ، ذاك الشيء الممكن القبيح ، وسيطرت رغبته عليه فقام قبل أن يشرب كأس الكشمشين ، فصاح الصيادلاني المذهول ، وغاص ثانية في ضباب الطريق .

تساءل في نفسه : «لماذا ترك ماريشال هذا ثروته كلها لجان ؟» . لم يعد الحسد الآن هو الذي يدفعه للبحث في القضية ، لم تعد الرغبة الدنيئة الطبيعية التي عرف كيف يخفيها في نفسه وهي تصطرع منذ ثلاثة أيام ، ولكنه الفرع من شيء رهيب ، الفرع من أن يعتقد هو نفسه أن جان أخاه إنما كان ابن ذاك الرجل .

كلا ، إنه لم يعتقد هذا ، إنه لا يستطيع ولا حتى أن يضع مثل هذا السؤال المجرم ! ويجب مع ذلك أن يقذف عن نفسه دائماً هذا الشك

الخفيف غير الممكن كله . ولكن يلزمه الضوء ، يلزمه اليقين ، يلزمه الاطمئنان التام لقلبه لأنه لا يجب أحداً في الدنيا سوى أمه . سيقوم بالتحقيق الدقيق وحيداً تائهاً في الليل ، مع ذكرياته ، وسيشئ عقله الحقيقة الساطعة . وبعد ذاك ستكون النهاية ، وبعدئذ سيذهب إلى النوم ولن يفكر أكثر .

قال في نفسه : « لئر ، لنفحص الأحداث أولاً ، سأذكر كل ما أعرف عنه ، عن سلوكه مع أخي ومعى ، سأبحث في كل العلل التي تسببت في هذا التفصيل .. رأى ولادة جان ؟ نعم ، ولكنه كان يعرفني من قبل . ولو أنه أحب أمي حباً صامتاً ومتحفظاً لكان فضلني أنا ، لأن ذلك حدث بفضلتي وبسبب مرضي بالحصى القرمزية صار صديق أبوي الودود . فالمنطقي إذن أن يختارني . وقد كان شديد العطف علي ، إلا إذا كان يحسّ نحو أخي وقد رآه يكبر أمامه بمجازية وإيثار غريزي » .

بحث في ذاكرته ، وتركيز شديد ، بكل أفكاره ، بكل قدرته العقلية ، بحث ليبيني من جديد ، ليرى مرة أخرى ، ليعرف أيضاً ، ليدخل إلى نفس الرجل كان يبير يعامله دون اهتمام به خلال سنواته في باريس .

وشعر أن المشي وحركة خطواته الخفيفة يعكران أفكاره قليلاً ، يشغلانه عن التركيز ، يضعفان امتداد أفكاره ، يحجبان ذاكرته . يجب أن يثبت في مكان واسع فارغ ، ليلقي نظرة على الماضي وعلى الأحداث المجهولة ، نظرة حادة ، لا يفتر منها شيء . وقرر أن يذهب ليقعد على

الرصيف الجانبي للميناء كما فعل الليلة الأولى . سمع وهو يقترب من المرفأً
أنيباً محزناً آتياً من عرض البحر مشثوماً شبيهاً بخوار ثور ، لكنه أطول وأشد .
كانت تلك صيحة صفارة إنذار من سفينة تائهة وسط الضباب .

واجتاح بدنه قشعريرة ، قبضت على قلبه ، ودوت في روحه
وأعصابه أكثر ، واعتقد أنّ صيحة الاستغاثة ألقيت إليه هو . وتأوه بدوره
صوت آخر يشبه أبعد منه قليلاً ؛ ثم أجابت عليه قريباً منه صفارة إنذار
الميناء فأطلقت صياحاً ممزقاً .

ودخل بير بسرعة في الرصيف الجانبي وهو لا يفكر بشيء ، ورضي
أن يدخل في الظلمات المأساوية ذات الخوار . وعندما جلس على نهاية
الرصيف أغلق عينيه كيلا يرى بؤر الأضواء الكهربائية المغطاة بالضباب ،
التي تمكّن السفن من دخول الميناء في الليل ، وكيلا يرى كذلك ضوء المنارة
الأحمر على الرصيف الجانبي مع أنّ العين كانت تميزه بصعوبة . ثم استدار
نصف استدارة ووضع مرفقيه على صخور الغرانيت وخبأ وجهه بيديه .
كانت أفكاره تكرر « ماريشال ، ماريشال » دون أن يلفظ الكلمة بشفتيه ،
كما لو كان يفعل ذلك لاستدعائه ، لاستحضاره وتمريض ظله . وفي ظلام
جفنيه المسبلين رآه فجأة ، مثلما كان يعرفه ، كان رجلاً في الستين من
عمره ، ذا لحية مدبية بيضاء وحاجبين سميكين بيضاوين كذلك كليهما . لم
يكن طويلاً ولا قصيراً ، كان بشوش الوجه ، عيناه رماديتان حلوتان . يتحرك
بتواضع ، له هيئة إنسان طيب بسيط حنون . كان ينادي بير وجان « ولدي

العزيزين» لم يبد عليه أنه فضل أحدهما على الآخر، وكان يدعوها معاً إلى العشاء.

وتشبث الكلب الذي يتبع أثراً يتبخر، شرع بير يبحث في كلمات الرجل الذي غيبتة الأرض، في حركاته، في نغمات صوته، في نظراته. كان يتخيله شيئاً فشيئاً، تخيله كله في شقته بشارع ترونشيه عندما كان يستقبلهما على طاولته هو وأخوه. يقوم بشؤونه خادمتان عجوزان، اعتادتتا ومنذ مدة طويلة بلا شك أن تقولاً: «سيد بير» و«سيد جان». وكان ماريشال يمد يديه للشايين إذا دخلا عليه اليمنى لأحدهما وللآخر اليسرى وكيفما اتفق. وكان يقول: «أهلاً وسهلاً يا ولدي، أليديكما أخبار عن أبويكما؟ إنهما لا يكتبان لي أبداً».

كان يتكلم بطلاوة وألفة في أشياء عادية، لاشيء غير عادي في ذهن هذا الرجل، وإنما لديه كثير من الرقة والسحر واللفظ. كان بالتأكيد صديقاً طيباً لهما، واحداً من الأصدقاء الطيبين الذين لا يشغلون بال أصدقائهم كثيراً. لأهم يشعرونهم بالوفاء. ومضت الذكريات تجري في حيال بير... وكان ماريشال في مرات عديدة كلما رآه مهموماً وأحس أنه ضيق ذات اليد كالطلاب، يقدم إليه مبلغاً من المال، يقرضه إياه من تلقاء نفسه، مبلغاً كبيراً، ربما يكون عدة مئات من الفرنكات، ينساها أحدهما فلا تستوفى. وإذن فما دام الرجل يشغل باله باحتياجاته فهو يحبه دائماً ويهتم به دائماً.

وإذن .. إذن ، فلماذا ترك ثروته كلها لجان ؟ لا . إنه وبشكل ظاهر لا يود الابن الثاني أكثر مما يود الابن الأكبر ، لا يهتم بأحدهما أكثر مما يهتم بالآخر ، لم يكن أقل حناناً فيما يظهر مع هذا دون ذاك ، وإذن .. وإذن .. فهل كان لديه سبب قوي خفي دفعه أن يوصي بماله كله لجان ، كله ، ولا يعطي بيير شيئاً ؟ .

وكان كلما أمعن التفكير بذلك ، أعاده ذهنه إلى السنوات الأخيرة الماضية ليعيش فيها . وقدر الطبيب أن هذا الاختلاف القائم بينهما عنده غير ممكن ولا يصدق .

ودخل إلى صدره ألم حاد وانزعاج لا يوصف ، حركا قلبه كالخرقة المضطربة . وبدا له أن قوة قلبه تحطمت ، وأن الدم يسيل فيه بغزارة لا تتوقف ، فاضطرب اضطراب الأمواج . وتمتم بصوت خفيض كأنه يهذي في كابوس : « يجب أن أعرف ، يا إلهي ، يجب أن أعرف » .

وبحث في أبعد من ذلك ، في الأزمان القديمة حين كان أبواه يسكنان باريس . كانت صور الوجوه تفر منه ، فاختلطت ذكرياته . اجتهد بشكل خاص أن يجد بينها وجه ماريشال بشعره الأشقر ، الكستناوي ، الأسود ؟ فلم يستطع ، كانت الصورة الأخيرة لوجه الرجل ، لوجه العجوز ، تمسح الصور السابقة : وتذكر تماماً أنه كان أكثر نحولاً وأنه ذو يد لينة ، وأنه غالباً ما كان يحمل الأزهار ، لأن أباه كان يردد بلا انقطاع : « وأيضاً باقات زهور ! هذا من الحماقة يا عزيزي ، ستفقد مالك كله على الزهور » . فكان ماريشال

يجيب : « هون عليك ، إن هذا لما ييهجني » وفجأة كان صوت أمه يقول وهي تبسم : « شكراً يا صديقي » . واجتاح صوتها فدخل إلى نفسه واعتقد أنه يسمعها تنطق به الآن . هكذا كانت تلفظ كلماتها لتنقش في ذاكرة ابنها .. !

وإذن ، فقد كان ماريتال يأتي بالزهور ، هو ، الرجل العني ، السيد ، الزبون ، إلى هذا الدكان الصغير ، إلى زوجة هذا الصائغ المتواضع . أكان يجها ؟ كيف أصبح صديق هذين البائعين إن لم يكن أحب المرأة ؟ كان رجلاً مهذباً ذا روح ناعمة جداً . كم من مرة تكلم مع بير عن الشعر والشعراء ! لم يكن يقدر الأدباء كما يقدرهم الفنانون ، ولكنه يهتز للأدب كالبورجوازيين . وكان الطبيب يتسم غالباً من ذاك الحنان الذي يحكم عليه بأنه أهله قليلاً . وأدرك أن هذا الرجل العاطفي لا يستطيع أن يكون صديق أبيه ، أبيه المفرط الواقعية ، المفرط المادية ، المفرط الثقل ، الذي تعني عنده كلمة (شعر) البلاء .

وإذن ، فماريتال هذا ، شاب فارغ غني ، مستعد لكل حنان ، دخل ذات يوم مصادفة إلى الدكان ، وقعت عينه على البائعة الجميلة ، اشترى ، عاد . ومع الأيام صار يتحدث بألفة أكثر ، ويدفع في المشتريات ما يمنحه حق الجلوس في بيت المرأة ، حق الابتسام للمرأة الشابة ، حق مصافحة زوجها . ثم بعد .. بعد .. أوه ! يا إلهي ... بعدئذ ؟ أحب الطفل الأول وداعبه ، طفل الجوهري ، حتى ولادة الآخر . ثم ظل غامضاً حتى

الموت . ثم بعد أن أغلق قبره ، وفسد لحمه ، وحي اسمه من قائمة أسماء الأحياء ، واختفى وجوده كله إلى الأبد ، ولم يعد يتخذ أي احتياط ، للخوف أو للكتان ، أعطى ثروته كلها للولد الثاني .. لماذا ؟ .. كان هذا الرجل ذكياً .. فهم وخبّر بدون شك أنه يمكن ، يرجح ، يفترض حتماً أن هذا الولد له . وإذن فقد أغوى المرأة ؟ وكيف يفعل ذلك إن لم يكن جان ابنه ؟

وفجأة ، اجتاحت نفس بير ذكرى عديدة مخفية ؛ كان ماريشال أشقر ، أشقر مثل جان . وتذكر صورة صغيرة رآها في باريس على مدفأة الصالة وقد اختفت . أين هي ؟ ضاعت أم اختفت ! آه ! لو أنه يستطيع أن يمسك بها ، ربما تحتفظ بها أمه في درج غير معروف حيث تخبئ بقايا الحب .

وأملت هذه الفكرة تضايقه ، تمزقه بشدة ، فأطلق آهة واحدة من الآهات القصيرة انتزعها من حلقه بألم حاد . وفجأة زعقت صفارة الميناء بالقرب منه ، كما لو فهمته . وأجابته بصراخ مسخ غير عادي أكثر دويماً من الرعد ، خرج في زجرة متوحشة مخفية هيمنت على أصوات الرياح والأمواج ، وانتشرت في الظلمات على البحر غير المرئي المكفن بالضباب .

وخلال الضباب القريب والبعيد كانت تصعد في الليل من جديد صيحات متشابهة . مخيفة هذه النداءات المنبعثة من السفن الكبيرة العمياء . ثم سكّت فيما بعد كل شيء .

وفتح بير عينيه ونظر ، دهش أن يكون هنا ، تنبه من كابوسه ، وقال

في نفسه : « أنا مجنون ، إنني أشك بألمي ! » وغرق قلبه في موج من الحب والحنان ، من الندم ، من الاستغفار ، من الأسى . أمه ! كيف استطاع مع ما يعرف عنها أن يتهمها ؟ أليست روح هذه المرأة وحياة هذه المرأة البسيطة العفيفة المستقيمة أنقى من الماء ؟ إنك لا تستطيع عندما تراها وتعرفها أن تحكم عليها بما يقبل الشك . إنه هو الابن الذي شك بها ! أوه ! لو يستطيع أن يأخذها بين ذراعيه ، في هذه اللحظة . كم يود لو يقبلها ، يلاطفها ، كم يود لو يجثو بين يديها يسألها الصفح ! أخذت أباه هي ؟ كان بالتأكيد رجلاً طيباً ، شريفاً ، مستقيماً في تجارته ، ولكن روحه لم تكن تتعدى أفق دكانه . كيف كانت هذه المرأة الفاتنة الجمال من قبل . إنه يعرف ذلك ، ولا يزال يرى ذلك ، إن روحها ناعمة عاطفية لينة ، فكيف رضيت خطيباً وزوجاً رجلاً يختلف كثيراً عنها ؟ ولم البحث ؟ إنها تزوجت كما تزوج الفتيات من الشبان الذين يدفعون المهر ، والذين يقدمهم الآباء ، واستقلا سريعا في مخونهما بشارع موغامتر ، وجلست وراء طاولة البيع ، متشجعة بروح مقرها الجديد ، بهذا المعنى السافل المقدس للاهتمام المشترك الذي يحل محل الحب ، وحتى محل الحنان في معظم مخازن باريس التجارية ، وبدأت العمل بكل ذكائها الحي الرفيع لجمع الثروة المرجوة لهما . وكانت حياتهما تجري هكذا : رثابة ، هدوء ، شرف ، من غير حنان .. ! من غير حنان ؟ أيمكن لامرأة ألا تحب ؟ امرأة شابة جميلة تعيش في باريس ، تقرأ كتباً ، تصفق لممثلات الحب على المسرح . أيمكن أن تقطع الشباب نحو الشيخوخة ، ولا يخفق قلبها ولو لمرة واحدة ؟ لا يصدق ذلك عن امرأة أخرى ، فلماذا يصدقه عن أمه ؟

كانت بالتأكيد تستطيع أن تحب ، كما تحب أي امرأة أخرى ! ولماذا تختلف
عن غيرها ، ولو أنها أمه ؟

كانت شابة مع كل الضعف الشعري الذي يعكر قلوب الشباب .
احتجرت ، حبست في الدكان قرب زوج مبتذل ، يتكلم دوماً في التجارة ،
بينما كانت هي تحلم بضوء القمر ، بالسفر ، بالقبلات في ظلام المساء . ثم
ذات يوم دخل رجل ، كما يدخل العشاق في الروايات ، وتحدث كما
يتحدثون ، أحبته . ولماذا لا تحبه ؟..

كانت تلك أمه ! حسناً ، أيجب عليه أن يكون أعمى وغيباً إلى درجة
أن يرفض الوضوح ، لأن ذلك يتعلق بأمه .

أهللت نفسها ؟ طبعاً ، فما دام هذا الرجل من غير صديقة أخرى ،
طبعاً وما دام قد بقي وفياً للمرأة المعزولة التي شاخت ، طبعاً وما دام ترك
ثروته كلها لابنه ، لابنها !

وقام بيير مرتجفاً من جنون كهذا ، حتى إنه أراد أن يقتل أحداً !
كانت ذراعه ممدودة ، وبده مفتوحة على سعتها ، ترغبان بالضرب ، بالرض ،
بالسحل ، بالخنق ! لمن ؟ لكل الناس ، لأبيه ، لأخيه ، للميت ، لأمه !

واندفع ليعود . ماذا سيفعل ؟ وعندما مرّ أمام برج صغير قرب عمود
الإشارات ، زعقت صفارة الإنذار بصيحة حادة ، أتت على وجهه . فقوجىء

بها بشدة فتعثر ساقطاً وتدحرج راجعاً إلى حاجز الفرانيت حيث جلس
خائر القوى قد أنهكته الصدمة .

وبدت الباخرة التي أجابت على الصفارة أول الأمر قريبة جداً ماثلة في
المدخل ، وكان المد عالياً . واستدار يبير فلمح عين الباخرة حمراء مكدرة
بسبب الضباب . ثم ارتسم ظلام كبير أسود بين رصيفي الميناء الجانبين ،
ظهر تحت أضواء الميناء الكهربائية المختلطة . وصاح خلفه صوت ساهر ،
صوت قبطان عجوز مبحوح غائر :

— اسم السفينة ؟

وأجاب في الضباب صوت قبطان واقف على الميناء ، مبحوح أيضاً :

— سانت لوسيا .

— البلد ؟

— إيطاليا .

— الميناء ؟

— نابولي .

ونخيل لبير أنه يلمح أمام عينيه المعتكرتين سحابة نار بركان فيزوف ،
بينما كانت في سفح البركان حشرات تتطاير في غيضة من يرتقال سورنت أو
كاستيلامار ! كم من مرة كان يحلم فيها بهذه الأسماء المألوفة ، كما لو كان

يعرف مناظرها ! آه، لو يستطيع الذهاب حالاً إلى أي مكان ولا يعود أبداً، لا يكتب لأحد أبداً، لا يخبر أحداً بما جرى له ! ولكن لا، يجب أن يعود، يعود إلى منزل أبيه وينام في سريره، لا بأس، لن يعود، سينتظر النهار، وأعجبه صوت صفارات البحر.

وقام ثانية وشرع يمشي كضابط يقوم بنوبة حراسة على السفينة. واقتربت سفينة أخرى وراء الأولى، ضخمة، عجبية، انكليزية عائدة من بلاد الهند. ورأى سفناً كثيرة تعود أيضاً، تخرج الواحدة بعد الأخرى من الظلام الغامض.

وباتت رطوبة الضباب شديدة لا تطاق، فأخذ بيير يمشي في الطريق نحو المدينة. وبرد جسمه كثيراً، فدخل مقهى البحارة ليحتسي مشروباً كحولياً ساخناً، وعندما أحرق الكحول الساخن المبرر شذقيه وحلقه، أحس في نفسه بالأمل يولد من جديد.

ربما أخطأ، إنه يعرف أمه جيداً، أخطأ بلا شك جنونه المتشرد ! لقد كدس البراهين، ورفعها مثلما يرفع دائماً قرار اتهام ضد بريء لتسهيل إدانته عندما يُعتقد أنه مذنب. سيفكر بطريقة أخرى. حينئذ ينام.

وإذن، فقد عاد لينام، وانتهى إلى النوم بجهد مبذول.

ولم يكّد جسد الطبيب يسترخي لساعة أو ساعتين في بلبلة نوم مضطرب، حتى استيقظ في ظلام غرفته الدافئة المغلقة، وقبل أن تشتعل الفكرة فيه أحس بضيق مؤلم، إن انزعاج الروح الذي ننام عليه يترك فينا الأسى. ويبدو أن صدمة التعاسة التي ضربتنا بالأس تنزلق خلال راحتنا، في لحمننا نفسه فتمرض وتتعب كالحمى.

وفجأة تذكر، فجلس في سريره. وبدأ عندئذ ينشئ ببطء، وشيئاً فشيئاً كل الاستدلالات التي عذبت قلبه على رصيف الميناء خلال صرخات صفارات الإنذار. وكان كلما كثر تفكيره قلّ شكّه. كان يشعر أنه مشدود بمنطقيته، كأنما تشده يد وتجذبه نحو يقين لا يطاق وتخنقه، كان عطشان حران، يخفق قلبه، فقام ليفتح نافذته، ويستنشق الهواء، وعندما وقف نناهى إلى سمعه خلال الجدار صوت خفيف.

كان جان بنام بهدوء ويشخر بلطف، بنام. هو! إنه لا يستشعر

بشيء، لا يتنبأ بشيء! رجل كان عرف أمهما، ترك له ثروته كلها، فأخذ المال، وقد وجد هذا صحيحاً وطبيعياً.

كان ينام، غنياً راضياً، لا يعلم أن أخاه يلهث من الألم ومن الضيق. قام وفي نفسه سخط على هذا الذي يشخر خالي البال مسروراً.

ليته قرع بابه بالأمس، ودخل، وجلس قرب سريره وقال له بعد أن استيقظ فجأة: «جان، يجب ألا تحتفظ بهذه الهبة التي ستسوق الربة إلى أمنا غداً والفضيحة» ولكنه لم يعد يستطيع الكلام اليوم. لا يستطيع أن يقول لجان وقد اعتقد أنه ابن لغير أبيهما. الآن، الآن، يجب أن يحفظ في نفسه الخزي الذي اكتشفه هو بنفسه، أن يدفنه، أن يخبئ عن الجميع اللطخة الظاهرة فلا يكتشفها أحد، ولاحتى أخوه، أخوه على الأخص.

لم يعد يفكر أبداً باحترام رأي الناس غير المفيد. لا بأس أن يتهم الناس أمه شريطة أن يعرف طهارتها هو، هو وحده! كيف سيستطيع العيش بقرها على مدى الأيام معتقداً وهو ينظر إليها أنها ولدت أخاه من ملامسة رجل غريب!

كم هي مع ذلك هادئة وصافية في غالب الأحيان، كم تبدو واثقة من نفسها! أيمن لمرأة مثلها نقية الروح، طاهرة القلب أن تسقط! أن يستجرها الهوى ولا يبدو بعدئذ عليها أماره. آه! الندم! الندم! يمكن أن يكون عذبتها من قبل في الزمان الأول، ثم امحى مثلما يمحي كل شيء. إنها بالتأكيد بكت خطيئتها، ورويداً ورويداً نسيها كلها تقريباً. أليس لكل

النساء، كلهن، موهبة على النسيان المدهش الذي يكاد يجعلهن بعد سنوات ينكرن من وهبته أجسادهن كلها وأفواههن ليقبلها؟ قبله تضرب كالصاعقة، ويمضي الحب كعاصفة ثم تبدأ الحياة من جديد وتصفو كالسما، وتعود كما كانت من قبل. أنتذكر سحابة واحدة منها؟

ولم يعد يبرر يستطيع البقاء في غرفته. هذا البيت، بيت أبيه يسحقه. شعر بثقل السقف يضغط على رأسه وبالجدران تخنقه. ولما اشتد عطشه أشعل شمعه وذهب ليشرب كأس ماء منعش من مصفاة المطبخ.

نزل الطابقين، ثم صعد بدورق ماء مملوء، جلس بقميص النوم على درجة من درجات السلم حيث كان تيار من الهواء يجري، شرب بدون كوب جرعات طويلة وهو يلهث كعداء. وعندما توقف عن الحركة أثر فيه هدوء المنزل، ثم أخذ يميز فيه شيئاً فشيئاً أقل نأمة. كان أول ما سمع ساعة غرفة الطعام التي بدت له دقائقها تكبر، تتضخم من ثانية إلى ثانية. ثم سمع من جديد شعيراً، شخير عجوز قصيراً، شاقاً، قاسياً، إنه شخير أبيه دون أدنى شك، شتجه هذا الشخير، كما لو جاء منبعثاً من نفسه فحسب، لا يرتبط هذان الرجلان اللذان يشخران في المنزل نفسه، الأب والابن، أحدهما بالآخر، لا يجمعها أي رابط، لا يضمهما أي رباط ولو وهناً شديداً الوهن يعرفان به ! إنهما يتكلمان بحنان، يتعانقان، يتهاجان، يتأثران معاً بالأشياء ذاتها، كما لو أن الدم نفسه هو الذي يجري في عروقهما. إن شخصين مولودين في طرفين من العالم لا يستطيعان أن يكونا بعيدين أحدهما عن الآخر أكثر من بعد هذا الأب عن هذا الابن.

واعتقدا أنهما يحبان بعضهما بعضاً، لأنّ كذبة كبرت فيهما، كذبة صنعت بينهما هذا الحب الأبوي وهذا الحب البنوي. كذبة يستحيل كشفها، وما عرف أحد أنه ابن غير حقيقي، ومع ذلك، ومع ذلك، فهما مخدوعان. وأنى لهما أن يعرفا؟ آه! لو كان تشابه ولو خفيفاً بين أبيه وجان، واحد من تلك التشابهات الغامضة التي تأتي من الجلد إلى الحفيد، مشيرة إلى أنّ الأصل كله ينحدر مباشرة من حب بعينه. يلزمه بوصفه طبيباً شيء صغير جداً، ليعرف شكل الفك، انحناء الأنف، بعد ما بين العينين، طبيعة الأسنان أو الشعر، ولا أقل من حركة أيضاً، عادة، طريقة سلوك، ذوق موروث، إشارة ما، تميزها الممارسة بوضوح. بحث ولم يتذكر شيئاً، لا شيء. ولكنه نظر بسوء، ولاحظ بسوء، ولم يكن لديه أي دليل يكتشف به الإشارات غير المحسوسة. قام ليدخل غرفته، وشرع يصعد الدرج في خطوات بطيئة، وقد استولى عليه التفكير، مر بقرب باب أخيه، توقف فجأة. وامتدت يده ليفتحه. واجتاحته رغبة جامحة في أن يرى جان حالاً، لينظر إليه طويلاً، ليباغته في أثناء نومه حين يكون ساكن الوجه، وخطوط وجهه مسترخية مرتاحة، وتكشيرات الحياة كلها مخفية. وعندئذ يمسك السر النائم في سحنته. وإن وجدت بعض التشابهات الممكنة فلن تهرب منه. ولكن، ماذا لو استفاق جان، ما سيقول له؟ كيف يفسر له هذه الزيارة؟

ظل واقفاً، أصابعه متشنجة على مقبض الباب يبحث عن سبب، وتذكر فجأة أنه منذ ثمانية أيام كان أعار أخاه قارورة دواء لتسكين آلام

الأسنان . وهو نفسه يتألم من أسنانه هذه الليلة ، وجاء ليطلب دواءه .
فدخل ولكن بقدم اللص الخفيفة .

كان فم جان نصف مفتوح ، ينام نوماً حيوانياً عميقاً . وكانت لحيته
وشعره الأشقران يرسمان بقعة ذهبية فوق البياضات . لم يستيقظ ولكنه
انقطع عن الشخير .

ومال بيير نحوه ، تأمله بعين متلهفة ، لا ، هذا الشاب لا يشبه
رولاند . وتنهت في ذهنه للمرة الثانية ذكرى صورة ماريشال الصغيرة
المختلفة . يجب أن يجدها ! ربما لن يعود إلى الشك وهو يراها .

وتحرك أخوه ، تضايق من حضوره بلا شك ، أو تضايق من ضوء
الشمعة الذي دخل إلى جفنيه . وعدها تراجع الطبيب على رؤوس أصابع
رجليه نحو الباب ، وأغلقه دون ضجيج ، ثم رجع إلى غرفته ولكنه لم ينام .

أبطأ النهار في قدومه ، ودقت الساعات الواحدة تلو الأخرى في ساعة
غرفة الطعام ، كان صوتها عميقاً مبهماً كما لو بلع جهازها جرس كاتدرائية .
كانت الدقات تصعد على الدرج الفارع وتعبر الجدران والأبواب وتموت في
أعماق الغرف في آذان النائمين الجامدة . أخذ بيير يمشي على طول الغرفة
وعرضها . من سريره إلى نافذته . ماذا سيفعل ؟ شعر باضطراب كبير ،
لا يستطيع أن يمضي يوم عد مع أسرته . لا يزال يريد البقاء وحده ، إلى غد
على الأقل ، ليفكر ، ليهذا ، ليتقوى من أجل الحياة اليومية ، التي لا بد لها أن
تستمر .

حسناً، سيذهب إلى مدينة (تروفييل) ليشاهد احتشاد الناس على (البلاج). سيسليه ذلك، سيغيّر جو أفكاره، سيعطيه الوقت ليتهيأ للشيء الفظيع الذي اكتشفه.

وعند ظهور الفجر غسل يديه ووجهه وأرتدى ثيابه. كان الضباب قد تبدد، والجو جميلاً، جميلاً جداً. ولما كان مركب مدينة (تروفييل) لا يغادر الميناء إلا في الساعة التاسعة فقد رأى الطبيب أن يقبل أمه قبل ذهابه.

انتظر لحظة ارتفاع النهار، ثم نزل. كان قلبه يخفق بشدة هو يلمس بابها، حتى إنه توقف ليستعيد أنفاسه. كانت يده الموضوعة على مقبض الباب مرتخية مهتزة، لا تقدر تقريباً على القيام بحركة خفيفة لإدارة المقبض من أجل الدخول. وقرع الباب، فسأل صوت أمه:

— من؟

— أنا، بيتر.

— ماذا تريد؟

— أود أن أسلم عليك لأنني أريد قضاء نهاري في مدينة (تروفييل) مع أصدقائي.

— إنني لا أزال في السرير.

— حسناً ، لاتزعجي نفسك ، سأقبلك عندما أعود في المساء .

وودّ لو يستطيع الخروج دون أن يراها ، دون أن يطبع على خديها قبلة مزيفة تثير غيانه سلفاً . لكنها أجابت .

— لحظة ، سأفتح لك .

وسمع حفق قدميها العاريتين على الأرض الخشبية ، ثم صوت المزلاج ينزلق وصاحت :

— ادخل .

دخل . كانت جالسة على سريرها ، بينما كان رولاند بجانبها ، وعلى رأسه غطاء ، وهو مستدير نحو الجدار ، يتشبث بالنوم . لا شيء يوقظه ، ما لم يهزه أحد فينزع يده .

في أيام الصيد ، تناديه الخادمة في الساعة المتفق عليها مع البحار باباغري الذي يأتي ليجرّه من هذه الاستراحة التي لا تقهر .

دخل بيير إلى أمه وهو ينظر إليها ، وبدأ له فجأة أنه لم يرها قط ، ومدت له خديها ، فوضع عليهما قبليتين ، ثم جلس على كرسي منخفض .
قالت :

— أكنت عذمت على هذا الخروج مساء البارحة ؟

— نعم ، البارحة مساء .

— أسوف ترجع لتتعثى؟

— لا أدري بعد. وعلى كل حال لا تنتظروني.

كان يتفحصها بفضول مذهل. أهذه أمه. هذه المرأة! بهذا الوجه الذي يراه منذ طفولته، منذ أن استطاعت عينه التمييز. هذه الابتسامة، هذا الصوت المعروف جداً، المألوف جداً، كان يبدو له ذلك كله جديداً تقريباً ومختلفاً عما كان عليه حتى الآن.

فهم الآن — لأنه يحبها — أنه لم يكن ينظر إليها قط. ومع ذلك فهذه هي، لم يكن يجهل شيئاً من تفاصيل وجهها الدقيقة، ولكنه وللمرة الأولى لمح التفاصيل الصغيرة بوضوح. ونقّب انتباهه المنزعج في هذا الرأس الغالي فكشفت له التعابير المختلفة التي لم يكن قد عرفها قط.

قام ليخرج، ثم انقاد فحاة لرغبة لم يستطع مقاومتها، في معرفة الشخص الذي اعتصر قلبه منذ أمس، فقال:

— قولي إذن، أتذكرين أنه كان فيما مضى صورة صغيرة لما ريشال موضوعة في الصالة؟

فترددت لثانية أو ثانيتين، أو على الأقل رأى أنها ترددت، ثم قالت:

— أجل.

— فما جرى لتلك الصورة؟

واستطاعت أن تجيب سريعاً :

— هذه الصورة .. انتظر .. لا أعرف بالضبط ، ربما هي عندي في دروجي .

— لطفاً ، ابحثي عنها .

— نعم ، سأبحث . ولماذا تريدها ؟

— آه ، ليس لي ، لنعطيهما لجان ، اعتقد أن ذلك طبيعي ، يجلب له السرور .

— نعم ، أنت على حق ، هذا تفكير طيب ، سأبحث عنها عندما أقوم .

خرج . كان يوماً أزرق ، لم تخالطه نسمة من ريح . وبدأ الناس في الشارع مسرورين ، وقد بدأوا في الذهاب إلى أعمالهم ، الموظفون منطلقون إلى مكاتبهم ، والفتيات غاديات إلى مخازنهن ، وكان بعض الناس يغنون ويمرحون في وضوح النهار .

كان المسافرون قد صعدوا إلى مركب مدينة (تروفل) حينما جلس بيير في المؤخرة تماماً فوق مقعد خشبي ، وتساءل : «أأزعجها سؤالي عن الصورة ، أم إنها دهشت فقط ؟ أقد ضيعتها أم خبأتها ؟ أتراها تعرف أين هي أم لا تعرف ؟ وإن كانت خبأتها ، فلماذا ؟ واستنتج عقله الذي يتبع دائماً

طريق الاستنباط نفسه إلى الاستدلال: الصورة صورة صديق، صورة حبيب، كانت في البهو بادية للعيان، إلى اليوم الذي لحت فيه المرأة، الأم، الأولى قبل الناس كلهم أنها تشبه ابنها، لاحظت منذ أمد طويل ولا شك ذاك التشابه.. ثم بعد الملاحظة فهمت أن كل أحد يمكنه في يوم أو في آخر أن يلاحظ أيضاً، فرفعت الصورة الصغيرة التي تبعث على الشك، وخبأتها، ولم تحرؤ على تمزيقها. وتذكر بيزر بوضوح أن تلك الصورة الصغيرة كانت قد اختفت منذ مدة طويلة، قبل أن تغادر الأسرة باريس! اختفت على ما اعتقد عندما بدأت لحية جان تنبت ويصبح فجأة شبيه الشاب الأشقر الذي كان يتسم في الإطار.

وعكرت أفكاره وبعمتها حركة المركب الذي انطلق! فقام وأخذ ينظر إلى البحر. خرج المركب الصغير من الرصيف الجانبي، دار إلى اليسار زافراً لاهثاً مرتعشاً وانطلق إلى الجانب البعيد الذي تلمحه العيون في الضباب الصباحي. ومن مكان لآخر كان يقوم شراع أحمر لقارب صيد ثقيل على صفحة البحر، يتخذ شكل صخرة كبيرة خارجة من الماء. وكان نهر السين يبدو وهو ينحدر من مدينة روان كذراع للبحر عريضة تفصل بين أرضين متجاورتين.

وفي أقل من ساعة وصل المركب إلى ميناء (تروفييل)، ولما كان الوقت وقت استحمام فقد ذهب بيزر مباشرة إلى (البلاج).

بدا (البلاج) من بعيد كمحديقة طويلة مملوءة بالزهور المتفتحة. وعلى

كتيب كبير من الرمل الأصفر يبدأ من جانب رصيف الميناء وحتى الصخور السوداء كانت المظلات من كل الألوان، والقبعات من كل الأشكال، وملابس النساء من كل درجات الألوان متجمعة أمام مقاصير الشاطئ جماعات أو صفوفاً على طول الموج، أو منشورة هنا وهناك. كانت كأنها باقات زهور ضخمة في مرعى لا حدود له. وكانت ضجة الأصوات المختلطة القريبة والبعيدة تفتت في الهواء الخفيف، وتمتزج بالنسيم الخفيف الذي يتنفسه الناس نداءات الأطفال الذين يستحمون وصيحاتهم مع ضحكات النسوة اللواتي يصنعن ضجة مستمرة حلوة. سار بيير وسط الناس ضائعاً شديد الضياع، منفصلاً عنهم شديد الانفصال، منعزلاً شديد الانعزال، غارقاً في أفكاره المعذبة شديد الغرق، كما لو ألقته سفينة في عرض البحر. كان يلامسهم، يسمع بعض جمل لا ينصت إليها، يرى الرجال ولا يبصرهم، الرجال يتحدثون إلى النساء، والنساء يبتسمن للرجال. ثم، لمحهم فجأة بجلاء، كأنما كان نائماً فاستيقظ، وانبثق في نفسه حقد عليهم، لأنهم يبدون سعداء مسرورين.

وذهب يقترب من الجماعات، يدور حولها، ممسكاً بأفكار جديدة. فترأت له كل الملابس المتعددة الألوان التي تغطي الرمال كباقة زهور. الأقمشة البديعة، المظلات الفاقعة اللون، الرشاقة المتصنعة للقامات المعصورة الخصور، ابتكارات الأزياء البارة كلها من الحذاء الدقيق وحتى القبعات الخارقة، اغواء الحركة، اغواء الصوت، اغواء الالتسامة، الغنج المنشور على الشاطئ.. تراءى له ذلك كله فجأة مثل تفتح زهور ممتدة

لدعارة النساء . هؤلاء النسوة متزينات كلهن ليعجب بهن معجب ، ليفتنه ، ليعزبه . إنهن يتزين للرجال ، لكل الرجال ، ماعدا الزوج الذي لا يجد حاجة للفوز به . إنهن يتزين لعاشق اليوم ، ولعاشق الغد ، لرجل مجهول يلتقن به ، يراقبه ، وربما ينتظره .

وهؤلاء الرجال الجالسون بالقرب منهن ، عيونهم بعيونهن ، يتحدثون إليهن فماً لفم ، ينادونهن ، يرغبون بهن ، يطاردونهن كالفرسة الهينة المرئية ، يطاردونها برغم أنها تبدو قريبة جداً وسهلة المثال جداً . لم يكن الشاطئ الواسع إذن إلا سوقاً للحب تباع النسوة أنفسهن فيه ، ويعطي الآخرون فيه أنفسهم ، هؤلاء يسامون على مداعبتهم ، وأولئك يعطين الوعد فقط . لا يفكرون إلا بشيء واحد ، بالتشويق إلى الحومهن وتقديعها ، وكن قدمنها من قبل ، بعنقا من قبل ، وعدن بها من قبل رجالاً آخرين . وقال في نفسه : لا جديده على الأرض . ولقد فعلت أمه ما تفعله النساء الأخريات . هذا هو كل شيء ! مثل الأخريات ؟ لا ، هناك استثناءات كثيرة ، كثيرة ! هؤلاء اللواتي يراهن حوله ، غنيات ، مجنونات ، باحثات عن الحب ، عضوات بالإجمال في نادي الغزل الأنيق المتفقت ، بل وحتى الغزل المحدد السعر ، لأنه لم يلتق على الشاطئ بشعب من النساء الشريفات ، الحبيسات في البيوت المغلقة ، وإنما اجتمع بأثار خطي لجيش من النسوة المتبطلات .

وارتفع مد البحر وجعل يطرد رويداً رويداً نحو المدينة الصفوف الأولى من المستحمين ، وشوهدت الجماعات تقوم بحموية وتهرب حاملة مقاعدها ،

مراجعة أمام المرح الأصفر الذي أتى مزركشاً (بدانتيللا) لطيفة من الزبد .
وصعدت أيضاً المقصورات المتنقلة المربوطة بالخيل ، وارتفع على رصيف
الخشب الموضوع للترهة والذي يحف بالشاطئ جمهور أنيق يسيل
باستمرار سميكاً بطيئاً مشكلاً تيارين متعاكسين يتلازمان ويختلطان . وهرب
ببئر نائر الأعصاب مغيظاً من هذا الاحتكاك ، فغاص في المدينة وتوقف
للغداء عند مدخل الحقول أمام بائع خمر متواضع .

وعندما تناول قهوته استلقى على كرسيين بجانب الباب ، ولما لم يكن
قد نام ليلة البارحة ، فقد غفا في ظل شجرة زيزفون . وانتفض بعد بضع
ساعات من الراحة ، إذ تبين له أن موعد عودة السفينة حان ، فمضى في
الطريق مثقلاً من التعب المفاجئ الذي سقط عليه خلال إغفائه . يريد
الآن العودة ، يريد أن يعرف إن كانت أمه وجدت صورة ماريشال .
أنتحدث هي عنها أولاً ، أم يجب أن يسألها من جديد ، إن لها بالتأكيد لسبباً
خفياً في إخفائها .

ولكنه عندما دخل غرفته ، تردد في النزول للعشاء ، كان يتألم كثيراً ،
ولم يمتلك قلبه المغيظ وقتاً كافياً ليسكن . وعزم مع ذلك على النزول ، وظهر
في غرفة الطعام عندما كانت الأسرة كلها على المائدة .

كانت الهجة تحرك الوجوه . قال رولاند :

— حسناً ، هل هناك تقدم في مشترياتكم ؟ أما أنا ، فلا أريد أن أرى
شيئاً قبل أن يوضع في مكانه .

فأجابت زوجته :

— طبعاً ، كل شيء على مايرام ، يلزمنا فقط وقت طويل للتفكير ،
كيلا نرتكب عملاً مغلوطاً . إن مسألة الأثاث تشغل بالنا كثيراً .

كانت قد أمضت نهارها مع جان في زيارة محلات السجاد ومخازن
الأثاث . إنها تريد أقمشة فاخرة ، باذخة قليلاً ، تلفت النظر . وكان ابنها على
العكس منها يرغب في الأشياء البسيطة المتميزة . ولذا أخذوا يعيدان
حججهما تلقاء كل النماذج المقترحة . ادعت أن الزبون صاحب الدعوى
بحاجة إلى الانطباع الذي يجعله يشعر بالغنى وهو يدخل إلى صالة
الانتظار . بينما كان جان يرغب ألا يستجر سوى الزبائن الأتقيين الأثرياء ،
يريد أن ينتصر على عقول النباه بوساطة ذوقه المتواضع الواثق . وعندما كانوا
يتناولون الحساء ، أعيدت المناقشة التي استمرت النهار كله . ولم يكن لروланд
رأي ، وكان يردد :

— أما أنا ، فلا أريد أن أسمع حديثاً عن شيء ، سأذهب لأرى عندما
سينتهي هذا .

ودعت السيدة رولاند ابنها الأكبر ليعطي حكمه ، فقالت :

— لى ، أنت يا بىير ، مارأيك فيما نقول ؟

كانت أعصابه مهتاجة إلى درجة عالية ، بحيث رغب أن يرد بلعنة .
ولكنه قال بلهجة جافة تهتز من سخطه :

— أوه ! أما أنا فعلى رأي جان تماماً . لا أحب إلا البساطة التي هي
في مجال الذوق كالاستقامة في مجال الأخلاق .

فردت أمه تقول :

— فكر في أننا نسكن مدينة تجارية ، حيث لا يتوافر الذوق الرفيع في
كل مكان .

فأجاب بيير :

— هذا لا يهم ؟ هل هذا سبب لتقليد الحمقى ؟ أأحتاج إن كان
المواطنون أغبياء أو أراذل أن أكون على مثالهم ؟ أيجب أن ترتكب امرأة
خطيئة بسبب أن لجاراتها عاشقين .

وشرع جان يضحك قائلاً :

— إنَّ لديك لحججاً تبدو مأخوذة من تشبيهات في أمثال الحكماء .

ولم يرد بيير . واستأنفت أمه وأخوه الحديث عن الأقمشة والأرائك .
ورآهما مثلما رأى أمه عند الصباح قبل خروجه إلى مدينة (تروفييل) رآهما
كغريب يلاحظ . وشعر حقيقة كأنما دخل فجأة في أسرة لا يعرفها . ودهش
على الأخص من أبيه ، دهشت منه عيناه وفكره . هذا الرجل الضخم الرخو
المسرور الأحمق هو أبوه ، له ! كلا ، كلا ، لا يشبهه جان أبداً .

أما أسرته فقد انتزعت منها منذ يومين يد مجهولة شريرة ، يد ميت ،

انتزعت كل الروابط التي تربط هذه الكائنات الأربعة بعضها ببعض ،
وحطمتها شيقاً فشيئاً ، لقد انتهت ، كسرت ، لم يعد له أم ، لأنه لا يستطيع
أن يحبها ، لا يستطيع أن يجلبها باحترام مطلق حنون تقي ، تحتاج إليه قلوب
الأبناء ، ولم يعد له أخ ، مادام هذا الأخ ابناً لرجل غريب ، لم يبق له إلا أب ،
هذا الرجل الضخم الذي لا يحبه . قال فجأة :

— قولي إذن يا أمي ، هل وجدت الصورة ؟

ففتحت عينين مدهوشتين وقالت :

— وأي صورة ؟

— صورة ماريشال .

— لا .. يعني ... نعم ... ماوجدتها ، ولكنني أعرف مكانها على
ماأعتقد .

وسأل رولاند :

— وماذا إذن ؟

فقال له بيير :

— صورة صغيرة لماريشال ، كانت فيما مضى في صالة بيتنا بباريس ،
أعتقد أن جان سيسر لو تكون عنده .

وصاح رولاند :

— طبعاً ، طبعاً ، أذكر تماماً ، وقد رأيتها نفسها في نهاية الأسبوع الماضي كانت أمك قد أخرجتها من درجها ، وقد تأكل أديهما . كان ذلك يوم الخميس أو الجمعة . هل تذكرين يا لويز ؟ لقد كنت أحلق عندما أخذتها من الدرج ، ووضعتها فوق الكرسي قبالتك مع كومة من الرسائل التي أحرقته نصفها . ها ؟ أليس ظريفاً أنك لمست تلك الصورة قبل يومين أو ثلاثة من ورائة جان ؟ لو أنني أعتقد بالمشاعر المسبقة ، لقلت إنها هي هذه .

وأجابت السيدة رولاند بهدوء :

— نعم ، عرفت أين هي ، سأذهب لأحضرها حالاً .

ولاذن فقد كانت تكذب ! كذبت في الصباح عندما أجابت ابنها عنها ، فقال : « لا أعرف بالضبط ، ربما هي عندي في دروجي » كانت رأيتها لمستها ، جستها ، تأملتها ، قبل أيام قليلة ، ثم خبأتها في درج خفي ، مع الرسائل ، رسائله لها .

نظر بيير إلى أمه التي كذبت ، كان ينظر إليها بغضب ابن مغيب مخدوع ، افتقد محبة مقدسة ، وبغيرة رجل طال أعماه ، ثم اكتشف أخيراً خيانة مخزية . لو أنه كان زوج هذه المرأة ، هو ابنها ، لأمسكها من معصمها ، من كتفها ، من شعرها وألقاها أرضاً ، ضربها ، سحقها ! بيد أنه

لا يستطيع أن يقول شيئاً ، ولا أن يفعل شيئاً ، ولا أن يشير إلى شيء ، ولا أن ييوح بشيء ، لأنه ابنها ، وليس لديه سبب للانتقام ، فهو لم ينخدع ، ولكنها خدعته بخنائها ، خدعته باحترامها التقى . كان يجب عليها أن تكون بالنسبة إليه أمّاً بلا عيوب ، كالأمهات كلهن بالنسبة لأولادهن . ووصل الاندفاع الذي أسخطه إلى درجة الحقد فشرع بأنّ إجرامها نحوه أشد من إجرامها نحو أبيه نفسه .

حب الرجل المرأة بالزواج عقد ارادي ، يذنب أحدهما فيه إذا خان صاحبه ، ولكن المرأة عندما تصبح أمّاً يكبر واجبها لأن الطبيعة عهدت إليها بحفظ الجنس . فإن خانت فهي عندئذ جبانة ساقطة دنيئة .

قال رولاند فجأة وهو يمدّ ساقيه تحت الطاولة مثلما يفعل كل مساء عندما يشرب كأساً من النبيذ :

— لا بأس على كل حال أن يعيش المرء بلا عمل عندما يملك بحبوحة صغيرة . وأرجو أن يقدم لنا جان عشاءات فاخرة منذ اليوم ، ولا يهمني والله أن أصاب أحياناً بآلام معدية .

ثم استدار نحو زوجته قائلاً :

— هيا ، اذهبي فأحضري تلك الصورة يا قطني ، مادمت قد فرغت من طعامك ، فإن رؤيتها تبهجني أيضاً .

قامت ، وأخذت شمعة ، ثم خرجت ، وبعد غيابها الذي بدا طويلاً

ليبير برغم أنه لم يستمر ثلاث دقائق عادت مبتسمة وهي تمسك بحلقة إطار
مذهب من طراز قديم وقالت :

— هي ذي، وجدتها مباشرة تقريباً.

كان الطبيب أول من مد يده . تسلّم الصورة ، ومن بعيد قليلاً على
طرف ذراعه فحصها . ثم وهو يشعر تماماً أنّ أمه تنظر إليه قام ببطء وعيناه
على أخيه ليقارن . وكاد أن يقول بعنف : « آه ، إنها تشبه جان » لكنه لم يجرؤ
على تلفظ هذه الكلمات الرهيبة ، فأظهر أفكاره وهو يقارن الوجه الحي
بالوجه المرسوم .

إنّ للوجهين بالتأكيد علامات مشتركة : اللحية نفسها ، والجبّة
نفسها ، ولكن لا شيء دقيق يكفي ليسمح بالتصريح بأنّ : « هذا هو الأب ،
وهذا هو الابن » فإلى جانب هذه العلامات المشتركة هناك شكل الأسرة ،
وتقارب المظهر الذي يحركه الدم نفسه . الأمر الذي لو توافر لبيبر لكان عنده
أكثر قطعية من مظهر الوجه هذه ، وهو ما جعل أمه تقوم وتدير ظهرها
متظاهرة أنها تخبئ وببطء شديد السكر والنييد في الخزانة . وفهمت أنه
عرف ، أو أنه على الأقل كان يشك !

قال رولاند :

— هيا ، هات هذه .

ومد يبير الصورة، وسحب أبوه الشمعة ليرى بوضوح، ثم تم
بصوت حنون :

— يا للولد المسكين ! من كان يظن ذلك ، عندما التقينا به ،
يا للجنة ! ما أسرع الحياة ! كان على كل حال رجلاً جميلاً في ذلك الزمن ،
ومؤدباً جداً ، أليس كذلك يا لوزير ؟

ولما لم تجب زوجته استأنف يقول :

— إنه معتدل الأخلاق ! لم أره قط منحرف المزاج . هو ذا قد انتهى ،
لم يبق منه شيء ، إلا الذي تركه لجان . وبعد كل شيء أقسم إن هذا ليدل
على أنه صديق طيب مخلص حتى النهاية ، ولم ينسنا حتى وهو يموت .

ومدّ جان بدوره ذراعه ليأخذ الصورة . تأملها بضع لحظات ثم قال
بأسف :

— أنا ، لم أكن أعرفه أبداً ، إنني لا أذكره إلا بشعره الأبيض .

ورد الصورة إلى أمه . فألقت عليها نظرة عجل ، وأدارت عنها وجهها
بسرعة ، وبدت خائفة ، ثم قالت بصوتها الطبيعي :

— إنها تخصك الآن يا جانو ، مادمت وريثه . سنضعها في شقتك
الجديدة .

وعندما دخلوا إلى الصالة، وضعت الصورة الصغيرة على المدفأة قرب الساعة، مثلما كانت من قبل.

أشعل بيير وجان سيكارتين. كانا يدخنان عادة وأحدهما يمشي خلال الغرفة، بينما يجلس الآخر غائصاً في أريكة يريح رجلاً على رجل. كان رولاند يحشو غليونيه، يجلس عادة على الكرسي جلسته على حصان، ييصق من بعيد في المدفأة، وكانت السيدة رولاند على مقعد واطئ، قرب طاولة صغيرة عليها ضوء، تطرز، أو تنسج الصوف، أو تضع علامات على البياضات. كانت بدأت هذه الأمسية بقطعة (كنفا) لغرفة جان، وهو عمل صعب معقد تتطلب بدايته انتباهها كله. ومع ذلك فقد كانت عينها التي تعدّ الغرزات ترتفع وتذهب سريعة عابرة إلى صورة الميت الصغيرة المستندة على الساعة. وكان الطبيب يقطع عرض الصالة في أربع خطوات أو خمس ويداه خلف ظهره وسيكارتته بين شفتيه ويلتقي كل مرة بنظرة أمه.

يمكن القول إنهما كانا يتبادلان النظر بترهص، وقد بدأ بينهما صراع قلق مؤلم لا يحتمل، يقبض على قلب بيير. قال في نفسه معذباً وراضياً في الوقت ذاته: «أهي تتألم في هذه اللحظة إن عرفت أنني كشفتها!» وفي كل دورة نحو الموقد كان يتوقف لبضع ثوان فيتأمل وجه مارشال الأبيض، وليبدو منه أن فكرة ثابتة تلاحقه. كانت الصورة الصغيرة بقدر يد مفتوحة تظهر شخصاً حياً شريراً مرعباً، دخل فجأة إلى هذا البيت، إلى هذه الأسرة.

وفجأة رن جرس الباب الخارجي، فاعترت السيدة رولاند الهادئة

جداً على الدوام رجفة كشفت للطبيب عن اضطراب أعصابها . ثم قالت :

— يجب أن تكون هذه السيدة روزميلي :

وارتفعت عينها التي لا تزال قلقة نحو المدفأة . وفهم بيير أو اعتقد أنه فهم ذعرها وانزعاجها . نظرة النساء ثاقبة ، وذهنهن متوقد ، وفكرهن شكاك . وعندما ستدخل ، ستلمح الصورة الصغيرة غير المعروفة ، وللنظرة الأولى ربما ستكتشف التشابه بين هذا الوجه ووجه جان . وعندها ستعرف ، ستفهم كل شيء ! وأدركه الخوف ، خوف مفاجئ من كشف هذا العار ، واستدار عندما فتح الباب ، فأمسك بالصورة الصغيرة فدفعها تحت الساعة دون أن يراه أبوه أو أخوه . والتقت من جديد عيناه بعيني أمه فبدتا له متغيرتين ، متعكرتين ، زائغتين .

قالت السيدة روزميلي :

— طاب مساؤكم ، جئت أشرب معكم فجاناً من الشاي .

ولكنهم حينما التفوا حولها ليسألوا عن حالها كان بيير قد اختفى من الباب الذي بقي مفتوحاً . ولما أحسوا بخروجه دهشوا . واستاء جان ، نحشي أن تجرح الأرملة الشابة فتمتم :

— يا للوحش !

وأجابت السيدة رولاند :

— لا تؤاخذوه، إنه مريض قليلاً، متعب من نزهة إلى (تروفيل).
فأجاب رولاند:

— ومهما يكن فليس هذا سبباً يدفعه ليفر كالحَيوان المتوحش.
وأرادت السيدة روزميلي تلطيف الجو فقالت مؤكدة:

— كلا، كلا، إنه ذهب دون حاجة إلى استئذان، فأحدنا يذهب
دائماً هكذا عندما يخرج مبكراً قبل الآخرين.
فأجاب جان:

— أوه! إن هذا ممكن في المجتمع، لافي الأسرة، وأخي ما كان يفعل
مثل هذا إلا منذ مدة يسيرة.

ولم يجد شيء في أسرة رولاند على مدار أسبوع أو أسبوعين، الأب يصيد، وجان تساعده أمه ليستقل في شقته، ويبرر المكتسب لا يظهر إلا في ساعات الوجبات. وسأله أبوه ذات مساء:

— لماذا بحق الشيطان يدي لنا وجهك شكل المأتم، هذا ما ألاحظه عليك منذ مدة.

أ
فأجاب الطبيب:

— ذلك لأنني أشعر بثقل الحياة على شكل مفرط.

فلم يفهم الرجل من ذلك شيئاً، وقال بهيعة متأسفة:

— حقاً إن ذلك لمعجب جداً. فمئذ أن سعدنا هذا الميراث والجميع تبدو عليهم التعاسة كما لو أن حادثاً مؤلماً نزل بنا، كما لو أننا نبكي أحداً.

قال بيير :

— أنا في الحقيقة أبكي واحداً .

— أنت ؟ من هو إذن ؟

— آه ! واحداً لا تعرفه ، وأنا أحبه كثيراً جداً .

ونخيل لروланд أن الكلام يتعلق بحب عابر ، بعاهرة غاؤها ابنه ،
فسألهم :

— امرأة بلا شك ؟

— نعم ، امرأة .

— ميتة ؟

— لا ، أشد من ذلك .

— آه ! .

ورغم أن العجوز دهش لهذه المكاشفة غير المتوقعة أمام زوجته ،
ولهذه اللهجة الغريبة من ابنه ، إلا أنه لم يلح في السؤال ، لأن مثل هذه
الأمر في رأيه تخص أصحابها .

وبدا على السيدة رولاند كأنها لم تسمع ، بدت مريضة ، شاحبة
الوجه جداً . كان زوجها في كثير من المرات يعجب عندما كان يراها وهي

تقعد على كرسىها كما لو أنها تسقط ، وعندما كان يسمعها تلهث في كلامها كما لو أنها لا تستطيع التنفس . قال لها :

— حقاً يا لويز ، إن مظهرك سيئ ، إنك تتعبين نفسك كثيراً في انتقال جان إلى بيته ! استريحى قليلاً ، يا للجنة ! ليس مستعجلاً ذلك القوي لأنه غني .

فهزت رأسها دون أن تحيب . وزاد شحوبها في ذاك اليوم كثيراً لدرجة أن رولاند لاحظ عليها من جديد ما كان لاحظته فقال :

— هذا غير ممكن أبداً يا عجوزي المسكينة ، يجب أن تعتني بنفسك .

ثم التفت إلى ابنه وقال :

— أنت ترى جيداً ، أنها متألمة ، أمك ، ألا تفحصها على الأقل ؟

فأجاب ببر :

— لا ، لا ألاحظ عليها شيئاً .

فانزعج رولاند وقال :

— ولكن ذلك يفقأ العيون ، لأجل الكلاب ! ماذا ينفع أن تكون طبيباً إذا لم تلاحظ أنت بالذات أن أمك متوعكة ؟ ولكن انظر إليها ، انظر إليها ، لا ، حقاً ، ربما تموت وهذا الطبيب لا يشك بشيء أبداً .

وأخذت السيدة رولاند تلهث ، وامتنع لوتها للدرجة أن زوجها صاح :

— ولكن ، سيفمى عليها.

— لا .. لا .. هذا لاشيء .. هذا سيمر .. هذا لاشيء .

واقترب بيير وهو ينظر إليها بثبات وقال :

— هيا ، قولي ، من أي شيء تشكين ؟

فردت بصوت منخفض سريع :

— لاشيء .. لاشيء .. أؤكد لك .. لاشيء .

ونخرج رولاند ليحضر خللاً ، عاد ، ومدّ الزجاجة إلى ابنه قائلاً :

— خذ سكين وجمعها إذن ، أنت ، هلاً سمعت دقات قلبها على

الأقل ؟

ولما انحنى بيير لياخذ نبضها ، سحب يدها بحركة مفاجئة جداً ،

فصدمت كرسيّاً بقرنها . فقال بصوت بارد :

— هيا ، دعيني أعنتني بك مادمت مريضة .

وحيث قامت ومدت له ذراعها . كان جلدها ملتهباً ، وضغط الدم

عندها هائجاً مهتراً . وتتم :

— في الحقيقة، هذا أمر ذو شأن، يجب أن تأخذي مهدئات .
سأكتب لك وصفة .

وحينما كان يكتب منحنيًا على ورقته استدار فجأة لسمع تأوهات
عجلى تحتنق بأنفاس قصيرة . كانت تبكي ويداها على وجهها . وسأل
رولاند باضطراب :

— لويز ، لويز ، مابل ؟ ولكن مابل إذن ؟

لم تجب ، وبدت ممزقة باكثاب رهيب عميق . وأراد زوجها أن يأخذ
يديها ويبعدهما عن وجهها ، فقاومت وهي تردد :

— كلا ، كلا ، كلا .

فاستدار نحو ابنه قائلاً :

— ولكن ما بها ؟ لم أرها قط كذلك .

فقال بيير :

— لا شيء ، أزمة عصبية بسيطة .

وبدا له أن قلبه يتعزى لرؤيتها معذبة هكذا ، وأن هذا الألم يخفف
حقده عليها ، ويقلل من العقوبة المتوجبة على عار . وتأملها كقاض رضي عن
عمله .

وقامت فجأة، فانطلقت نحو الباب باندفاع غير متوقع لا يستطيع أحد أن يوقفه، وركضت لتحتبس نفسها في غرفتها. ومكث رولاند والطبيب وجهاً لوجه، فقال الأول:

— هل فهمت من ذلك شيئاً؟

فأجاب الآخر.

— نعم، هذا بسبب توقعك عصبي بسيط صغير، وهو يظهر غالباً في مثل عمر أمي. ومن المحتمل أنه سيعاودها مرات كثيرة.

وحدث لها في الواقع أزمات كهذه، انتابها كل يوم تقريباً، أزمات بدا كأن يبصر سببها بكلمة واحدة، كما لو كان عنده سر من شرها الغريب غير المعروف. راقب في وجهها تناوب الراحة، ومع حيل التعذيب أيقظ بكلمة واحدة ألاماً كان هادئاً إلى وقت قريب.

كان يتألم بقدر ألامها. يتألم بشدة لأنه لم يعد يحبها، لأنه لم يعد يحترمها، لأنه يعذبها، يتألم لأنه يلهب الجرح الدامي الذي فتحه في قلب المرأة والأم، وعندما كان يشعر بشدة بؤسها وبأسها، فإذا عذبه الندم ومزقته الشفقة ونحجل أن يحطمها باحتقاره ذهب إلى المدينة وحيداً.. ورغب أن يلقي بنفسه في البحر، أن يغرق ليتتهي من ذلك كله.

أواه! كم يريد أن يسامح، الآن! ولكنه لا يستطيع وهو في حالة لا يقدر معها على النسيان، لو أنه يستطيع ألا يؤلمها، إنه هو نفسه يتألم

دائماً، كان يأتي في أوقات الوجبات وهو ممتلئ بقرارات لطيفة، ثم عندما يلمحها، عندما يرى عينها الطاهرة الصادقة فيما مضى، الهاربة الفزعة التائهة اليوم، يضرب الأسماع رغباً عنه بجملة قاسية لا يستطيع أن يحتفظ بها دون أن تصعد إلى شفتيه .

وينخسها السر الدنيء الذي يعرفانه هما وحدهما . إنه سمّ يحمله الآن في أورده، فيرغب معه أن يعضّ على طريقة كلب مسعور . لم يعد شيء يضايقه، ذلك لأنها تتمزق باستمرار، وذلك لأن جان يسكن الآن في شقته الجديدة، وعند المساء يأتي ليتعشى وينام مع الأسرة . وغالباً ما كان جان يلمح مرارة في عين أخيه التي تنبئ عن الحسد وعنفاً . ولقد رجا أن يقفه عند حده، وأن يعطيه درساً في يوم أو في آخر، لأنّ حياة الأسرة غدت قاسية جداً مع تتابع هذه المشاهد المستمرة . ولكن ألمه من هذه الفظاظات غداً أقل، لأنه يعيش الآن مستقلاً عن الأسرة . وحبّه للهدوء يدفعه إلى الصبر . أسكرته الثروة مع ذلك، ولم يعد فكره يتوقف البتة إلا عند الأشياء التي تحمل له مصلحة مباشرة .

كان يصل إلى البيت وذهنه مملوء بالهموم الصغيرة الجديدة، شغل باله شكل السترة، وشكل قبعة اللباد، والحجم الكبير المناسب لبطاقيات الزيارة . وكان يتكلم باستمرار عن تفاصيل البيت كلها، عن الألواح الموضوعة في خزانة غرفته لحفظ البياضات، عن مشجب المعاطف القائم في المدخل، عن الأجراس الكهربائية المهيأة للتنبيه على كل دخول خفي إلى المسكن .

وقرر بمناسبة سكنته أن يقيم نزهة ريفية في قرية (سان جوان) تليها حفلة شاي في منزله بعد العشاء حين الرجوع منها . وأراد رولاند أن يذهب إليها عن طريق البحر ، ولكن بعد المسافة وعدم التيقن من الوصول المريح إن هبت الريح معارضة جعله يدفع رأيه . فاستأجروا عربة لنزهتهم . خرجوا في نحو الساعة العاشرة ليصلوا وقت الغداء . كان الطريق الواسع المغبر يمتد خلال الحقول النورماندية التي كانت تموجات سهولها ومزارعها المحاطة بالأشجار تشبه متنزهاً لانهاية له . وكانت أسرة رولاند والسيدة روزميلي والكابتن بوسير ساكنين في العربة الماضية التي يحبّ حصانها الضخمان ، تصم آذانهم ضجة العجلات وقد أغلقوا عيونهم في سحابة الغبار .

وكان الأوان أوان نضوج الثمار ، وبدأت حقول البرسيم في خضرة قائمة ، ومزارع الشمندر في خضرة حيوية ، والقمح الأصفر يضيء الريف بنوره الذهبي الأشقر ، بدأ كأنما يشرب أشعة الشمس الساقطة عليه . بدأ الفلاحون يحصدون في بعض الحقول ، وظهر الرجال يتأرجحون خلال الحقول التي يهاجمونها بمناجلهم ، وهم يتنزهون في الأرض المخلوقة يحملون مناجلهم الكبيرة على شكل جناح .

وبعد ساعتين من السير ، أخذت العربة طريقاً إلى اليسار ، مرت بقرب طاحونة هوائية تدور ، تكدست وراءها بقايا أشياء رمادية نصف متعفنة ، حكموا عليها بالاعدام . ثم دخلت العربة في ساحة جميلة ، وتوقفت أمام بيت أنيق ، نزل مشهور في البلدة . وبدأت قيمة النزل وتدعى ألفونسين

الجميلة تقف متبسمة على بابه ، وأمسكت بيد السيدتين اللتين ترددتا أمام الدرج العالي . كان باريسيون غريباء يتغدون تحت خيمة على طرف المرج المظلل بشجر التفاح وقد جاءوا من (إيترتا) . وكان يُسمع من داخل النزل أصوات وضحك وضجيج أواني المائدة .

وتوجب عليهم أن يأكلوا في غرفة ، فكل القاعات مملوءة . وفجأة ظهر رولاند تجاه سور عليه مصائد القريدىس ، فصاح قائلاً :

— آه ! آه ! وهل يصاد القريدىس هنا ؟

فأجاب بوسير .

— نعم ، إنه عين المكان الذي يؤخذ منه أغلب ما في الشاطئ من القريدىس .

— يا للجنة ! لو نذهب إليه بعد الغداء ؟

كان البحر في ذلك الوقت قد أخذ الجزر الذي سيستمر ثلاث ساعات ، فقرر الجميع أن يقضوا فترة ما بعد الغداء بين الصخور لبحثوا عن القريدىس . أكلوا قليلاً لئلا يتدفق الدم إلى رؤوسهم حين تصير أقدامهم في الماء . وأرادوا كذلك أن يستبقوا أنفسهم للعشاء الذي سيقدم إليهم رائعاً ، والذي سيكون جاهزاً عند الساعة السادسة وقت عودتهم .

ولم يستطع رولاند الصبر . كان يريد أن يشتري مصائد خاصة

للقريدس، تسمى (لانيه)، تشبه كثيراً تلك التي تستخدم لتعقب الفراشات في المراعي، وهي جيبان صغيران من الخيوط المربوطة في دائرة خشبية، على طرفها عصا طويلة، فأعارته إياها ألفونسين المبتسمة دائماً، ثم ساعدت المرأتين على هندام عفوي كيلا تبللا ثوبيهما، وقدمت لهما تنورتين ضخمتين طويلتين من صوف، وحذاءين رياضيين. ونزع الرجال أحذيتهم واشتروا من عند إسكاف هناك أحذية قماشية وبقاقيب.

شرعوا يسبرون في الطريق، المصائد على الأكتاف، والسلال على الظهر، وكانت السيدة روزميلي في زياها ظريفة جداً، ظرافة غير متوقعة. وبدت كفلاحة جريئة، فارتفعت التنورة التي أعارتها إياها ألفونسين بلطف على الجانبين، وخيطة بقطبة خيط لتستطيع الركض والقفز بين الصخور دونما خوف.

وأظهرت تنورتها عرقوبين وجانباً من عضلة الرجل، عضلة مكنتزة لامرأة قصيرة غضة قوية. وكان خصرها متحرراً من الزنار لتتحرك بسهولة. وغطت رأسها قبعة جنائني واسعة من القش الأصفر حوافها مفرطة البعد، ترتفع على جانبيها أغصان من شجرة الطرفاء، أعطتها هيئة فارس فخور.

كان جان يتساءل كل يوم منذ ورث المال: أيتزوج أم لا؟ وكان في كل مرة يراها هناك يقرر أن يتزوجها، ثم عندما يكون وحده، يرى لديه وقتاً طويلاً للتفكير؛ إنها الآن أقل عني منه، لا تملك غير ١٢ ألف فرنك من الإيرادات على شكل بيوت ومزارع وأراض في الهافر قرب الأحواض، وهذا

يمكن أن يساوي فيما بعد مبلغاً ضخماً. فقروها إذن ربما تكون مكافئة لثروته، ثم إنها تعجبه بالتأكيد هذه الأرملة الشابة. وقال لنفسه وهو يراها تمشي أمامه اليوم: «هيا، يجب أن أقرر، لأشك أنني لن أجد خيراً منها».

تبعوا وادياً صغيراً ينزل من القرية في منحدر نحو جُرف، وكان الجرف في طرف هذا الوادي مطلاً على البحر من ارتفاع ثمانين متراً. وكان يبدو من بعيد في الشواطئ الخضراء التي تحيط بالبحر هابطة إلى الجمين واليسار مثلث من الماء في زرقاة فضية تحت الشمس، وشرع لا يكاد يظهر، يتخذ شكل حشرة. وكانت السماء المملوءة بالضياء تختلط بالماء إلى درجة لا يتميز معها قط أين ينتهي أحدهما، وأين يبدأ الآخر. وكانت المرأتان اللتان يتبعهما الرجال الثلاثة ترسمان على الأفق الواضح قامتيهما المشدودتين في قميصيهما. وكان جان في عينه البراقة ينتظر أمامه هروب عرقوب السيدة روزميلي الدقيق وساقها النحيلة، وخصرها اللدن، وقبعتها الكبيرة المغوية. ونشط الهروب رغبته، ودفعه إلى قرارات فاصلة، يتخذها المترددون والاحتجلون فجأة، وكان الهواء الفاتر المختلط برائحة الشاطئ، ورائحة نبات الجولق، ورائحة نبات النُفل، ورائحة الأعشاب، ورائحة الصخور البحرية المكتشفة، ينشطه أيضاً ويسكره بلطف، فكان في كل خطوة يتقدم في قراره أكثر قليلاً، في كل ثانية، في كل نظرة تقع على سواد المرأة الشابة الرشيق. وقرر ألا يتردد بعد، أن يقول لها إنه يحبها، وإنه يرغب في الزواج منها. خدمته رحلة الصيد، فيسرت لقاءهما وجهاً لوجه، وقدمت لهما فوق ذلك إطاراً حلواً، مكاناً جميلاً للحديث عن الحب، حيث الأقدام في

أحواض الماء الصافي، وهما ينظران إلى حيوانات القريدس تفر تحت حشاش البحر .

وعندما وصلوا إلى طرف الوادي على حافة المنحدر لمحوا ممراً ينزل على طول الجرف ، وكان تحتهم بين البحر وسفح الجبل بنصف ارتفاعه تقريباً ركام مفاجئ من الصخور الضخمة المنهارة المقلوبة المتكومة بعضها على بعض في متسع من السهل المعشب المتموج الممتد على مدى البصر نحو الجنوب ، وقد تشكل من الانهيارات القديمة ، وعلى هذا الشريط الطويل من أشواك الغابات والأرض المعشبة المهترئة كاهتزازات بركان ، كانت الصخور المتساقطة تشبه أطلال مدينة كبيرة اختفت ، وكانت من قبل تطل على المحيط ، وأحاط بها هي ذاتها سور أبيض وشاطئ صخري لانهائية له .

وقفت السيدة روزميلي وقالت :

— هذا، هذا جميل .

وكان جان قد أدركها، وقلبه متأثر ، فقدم لها يده ، لتنزل على الدرج الضيق المحفور في الصخرة .

ومضوا إلى الأمام ، بينما تصلب بوسير على ساقيه القصيرتين ، ومدّ ذراعه المطوية للسيدة رولاند التي دوخها الفراغ . ووصل رولاند وبير بعد الجميع ، فقد اضطر الطبيب أن يجرّ والده الذي أزعجه الدوار ، حتى إنه ترك نفسه ينزلق درجة درجة على مؤخرته .

وكان الشابان المنحدران في المقدمة يضيان بسرعة ، وفجأة لهما بجانب مقعد خشبي كان مكاناً للراحة في منتصف المنحدر تقريباً خيط ماء صاف ، يندفع من ثقب صغير . كان يتدفق أولاً في حوض بقدر الطست حفره الماء نفسه ، ثم يسقط في شلال عال من ارتفاع قديمين على الأكثر ، ويتوارى خلال الممر الضيق حيث امتدت سجادة من الجرجير ، ثم يختفي في أشواك العوسج والأعشاب ، التي نمت على السهل المرتفع ، حيث تتكدس الانهيارات .

وصاحت السيدة روزميلي :

— آه ، ما أشد عطشي ! ولكن كيف أشرب ؟

وحاولت أن تجمع في قعر كفها الماء الذي تسرب من خلال أصابعها . وخطر بجان أن يضع حجراً في الطريق فركعت عليه لتهدل من النبع بشفتيها اللتين كانتا على الارتفاع الذي يخرج منه الماء . وعندما رفعت رأسها المغطى بآلاف الرذاذات المتألقة المنثورة على جلدها ، على شعرها ، على أهدابها ، على صدرها ، مال نحوها جان وتمتم يقول :

— كم أنت جميلة !

فأجابت باللهجة التي تستعمل لتأنيب طفل مذنب .

— أيمكنك أن تسكت ؟

كانت تلك هي الكلمات الأولى الغزلة قليلاً التي تبادلها . وقال
جان وهو متعكر جداً :

— هيا ، فلنهرب قبل أن يدركنا الآخرون .

ولمح لثوه قريباً منهما جداً ، ظهر القبطان بوسير الذي كان ينزل
القهقري ، ليسند يديه السيدة رولاند ، كان رولاند أكثر ارتفاعاً ، وأكثر
بعداً ، لا يزال ينزل على أسفل بنطاله ، ويتجرجر على رجليه ومرفقيه بسرعة
السلحفاة ، بينما كان بير يتقدمه ويراقب حركاته .

وخفت وعورة الممر وأصبح مخرجاً لطريق في منحدر يدور حول كتل
ضخمة ساقطة فيما مضى من الجبل . وأخذت السيدة روزميلي وجان
يركضان ، فكانا بعد قليل على أرض محصبة قطعها ليصلا إلى الصخور ،
فوجدنا سطحاً طويلاً منبسطاً مغطى بالأعشاب البحرية ، تلتصق فيه برك
صغيرة جداً خلف هذا السهل اللزج بالنباتات البحرية ، وبالحضرة الملتصقة
السوداء .

ورفع جان بنطاله إلى مانتحت عضلة ساقه ، وشمر كفيه إلى المرفقين
فلا يتلا ، ثم قال :

— هيا !

وقفز بعزم في البركة الأولى التي صادفها . ورغم أن الشابة كانت
أكثر احتراساً منه ، وأنها قررت سريعاً أن تدخل الماء ، إلا أنها دارت حول

البركة الضيقة في خطي خائفة من الانزلاق على النباتات اللزجة ، وقالت :

— أترى شيئاً؟

— نعم أرى وجهك الذي يتعكس في الماء .

— إن لم تر إلا هذا ، فلن تصطاد كثيراً .

فتمتم بصوت حنون :

— آه ! إنني أفضل هذا من بين ألوان الصيد كلها .

فضحكت قائلة :

— جرب إذن ، ستري كيف سيهرب البصير من خلال مصيدتك .

— سأفعل .. إذا أردت .

— أريد أن أراك تمسك القريدس .. لاشيء غيره .. في هذه اللحظة .

— أنت عفريتة . هيا نذهب إلى مكان أبعد . لاشيء هنا .

وقدم لها يده تمشي على الصخور الرمادية ، كانت تتسند خائفة قليلاً وفجأة شعر هو بالحلب يغزوه ، يحمل نزواته ، وأنه جائع إليها ، كما لو أن المرض الذي كانت يئيب به ، قد انتظر هذا اليوم ليفترخ . ووصلا سريعاً إلى حفرة أعمق ، حيث تموجت تحت الماء المرتعش السائل باتجاه البحر البعيد ،

بوساطة صدع لا يرى، أعشاب طويلة دقيقة ملونة بشكل غريب،
وخضلات شعر وردية وخضراء، تبدو وكأنها تسبح. وصاحت السيدة
روزميلي:

— انظر! انظر، رأيت واحدة، واحدة كبيرة، واحدة كبيرة جداً
هناك.

ولمحا بدوره، ونزل في الحفرة بجرأة، فتبلل حتى زناره. ولكن حيوان
القريدس الذي حرك شواربه الطويلة، تراجع ببطء أمام المصيدة التي دفعها
جان نحو الحشائش، وهو واثق من الإمساك به. وعندما أحس بالحصار،
انزلق باندفاع فجائي إلى ماتحت المصيدة خلال العشب البحري واختفى.

ولم تستطع الشابة التي كانت تنظر بكل اختلاج إلى هذا الصيد أن
تمسك هذه الصيحة:

— آه! فاشل!

فاغتاز، وبحركة لا إرادية، سحب مصيدته إلى قعر مملوء بالعشب،
ورفعها إلى سطح الماء، فرأى فيها ثلاثة حيوانات كبيرة من القريدس
الشفاف، اقتطفها على غير هدى من مخبئها الخفي، وقدمها منتصراً إلى
السيدة روزميلي التي لم تجرؤ على أخذها خائفة من طرفها الحاد المسنن
ورأسها الدقيق المسلح، وقررت مع ذلك أن تلتقطها بين أصبعيها من

الطرف الخيطي للحيتها، ووضعتها الواحدة بعد الأخرى في سلة الظهر مع قليل من نباتات البحر لتحفظ بها حية.

ثم وجدت بركة ماء أقل احتفاراً، فدخلت فيها بقدم مترددة تشهق قليلاً من البرد الذي أخذ قدميها، وجعلت تصطاد هي أيضاً. وكانت ماهرة ذات حيل، يدها لينة تحس بالصيد على شكل مناسب، وفي كل مرة تقريباً تلتقط بصيدها البطيء الذكي حيواناً مخدوعاً ومندهشاً. ولم يجد جان شيئاً بعدئذ، ولكنه كان يتبعها خطوة خطوة، يمسّها، يميل عليها، يتظاهر بقنوط عظيم بسبب إخفاقه، وأنه يريد أن يتعلم. وقال:

— أوه! دليني، دليني!

ثم، وبينما كان ينعكس وجهاهما الواحد بجانب الآخر في الماء الرائق جداً، والذي كانت نباتات قعرة السوداء تصنع فيه مرآة صافية. كان جان يبتسم للرأس المجاور الذي ينظر إليه من أسفل، ويلقي عليه حيناً قبله من طرف أصبعه، تبدو وكأنها تسقط من فوق. قالت الشابة:

— آه! كم أنت مزعج! يا عزيزي يجب ألا تفعل أبداً شيئاً في وقت واحد.

فأجاب:

— أنا لا أفعل سوى شيء واحد. أنا أحبك.

فانتصبت ، وقالت بلهجة جادة :

— هيا ، ماجرى لك ؟ هل فقدت عقلك ؟

— لا ، لم أفقد عقلي . أنا أحبك ، وأجرؤ أخيراً أن أقول لك هذا .

فوقفا في المد المالح الذي يبللهما حتى عضلات سوقهما ، وانسابت أيديهما مستندة على مصيديهما ، ينظر كل منهما في أعماق عيون الآخر .

واستأنفت تقول بلهجة متفكهة مختلفة :

— لم أنت مغفل إذ تكلمني عن هذا في مثل هذا الوقت ؟ ألا تستطيع الانتظار إلى يوم آخر ، فلا تفسد عليّ صيدي ؟

فتمم يقول :

— عذراً ، ولكنني لم أعد أستطيع أن أسكت . أنا أحبك منذ زمن طويل . واليوم قد دوختني ، لتسليبي مني عقلي .

وعندئذ ، وفجأة بدا عليها أنها رضخت ، وانقادت لتتكلم بجهد ، فأقلعت عن حيوها ، وقالت :

— لنجفف أنفسنا فوق هذه الصخرة ، لنستطيع الحديث بهدوء .

وزحفا فوق صخرة عالية قليلاً ، وحالما كانا عليها جنباً إلى جنب وأقدامهما متدلية في الشمس الساطعة استأنفت تقول :

— يا صديقي العزيز، أنت لم تعد طفلاً، وأنا لست بنتاً صغيرة .
إننا أنا وأنت نعرف القضية تماماً . ونستطيع أن نزن كل النتائج المترتبة على
أفعالنا . وإذا قررت اليوم أن تصرح لي بحبك، فأنا أفترض بشكل طبيعي
أنك ترغب في الزواج بي .

ولم يكن ينتظر هذا التفصيل البين لحالته، فأجاب ببلاهة :
— طبعاً .

— تكلمت بهذا مع أهلك وأهلك ؟

— لا، فأنا أريد أن أعرف إن كنت ترضين بي .

فمدت إليه يدها التي لاتزال مبللة، وحين وضع يده فيها باندفاع
قالت :

— أنا أَرْضِي حقاً، وأعتقد أنك طيب مستقيم . ولكن لا تنسى أنني
لا أريد إغاظه والديك .

— أوه ! أظنن أن أُمِّي لم تتوقع، أكانت تحبك مثلما تحبك، لو لم
تكن ترغب في زواجنا ؟

— هذا حق، أنا مضطربة قليلاً .

وسكتا، كان هو مأخوذاً، على خلافها هي، كانت متعكرة المزاج

قليلاً ، متبصرة جداً ، وكان يتوقع منها غزلاً لطيفاً ، ورفضاً بمعنى الموافقة ، بعد كل هذه الفكاهة المتطرفة للحب المختلط بالصيد في بقبة الماء !

وقضي الأمر ، شعر أنه ارتبط ، وأنه تزوج بعد عشرين كلمة ، ولم يعد هناك من شيء ليقوله ماداماً قد وافقاً ، وبقياً متحيزين قليلاً ، لسرعة ما حدث ، مرتبكين فيما بينهما ، مضطربين ، لايجرؤان على الكلام ، ولم يعودا يجرؤان على الصيد ، لا يديران ما يصنعان .

وأنقذهما صوت رولاند يقول :

— من هنا ، من هنا ، أيها الأولاد ! تعال لتنظر يا بوسير . أفرغ البحر ، هذا المقدام !

صاد الكابتن صيداً عجيباً . تبلل حتى صلبه . كان يذهب من بركة إلى بركة ، وهو يعرف بنظرة واحدة أفضل الأماكن . وبحركة بطيئة ومطمئنة ، ينقب بمصيدته في كل التجاويف المخفية تحت النباتات البحرية . وكانت حيوانات القريدس الشفافة بقشرة رمادية تختلج في قعر يده عندما يأخذها في حركة حادة ليلقيها في سلتة .

ولم تعد السيدة روزميلي المندهشة المبهورة تتركه ، جعلت تقلده في أفضل قدراتها ، نسيت وعدّها تقريباً ، ونسيت جان الذي كان يتبعها حاملاً لتتصرف بكليتها إلى جمع القريدس من تحت العشب العامم في متعة طفولية .

وصاح رولاند فجأة :

— عجباً هذه هي السيدة رولاند لحقتنا .

كانت أول الأمر وحيدة على الشاطئ مع بير ، لأنهما لم يرغباً لاهي ولا هو في التسلية بالجري بين الصخور ، ولا في التخبط بالبرك ، ومع ذلك فقد ترددا في البقاء معاً . كانت خائفة منه ، وابنها كان خائفاً منها ومن نفسه ، من فظاظته التي لا يسيطر عليها . كانا كلاهما تحت الشمس وقد خففت حرارتها الرياح البحرية ، وامتد أمامهما الأفق الواسع للماء الأزرق الصافي المتعرج بالفضة . كانا يقولان في نفسيهما : كم كانت الحياة جميلة من قبل هنا ! .

لم تجرؤ المرأة أن تتحدث إلى بير ، وهي تعرف جيداً أنه يجيب بفظاظة ولم يجرؤ هو أن يتحدث إليها ، وهو يعلم أيضاً أنه يتكلم بعنف . كان يزعج الحصبات المدورة بطرف عصاه ، يحركها ، يضربها . وأخذت هي بعينين غائمتين بين أصابعها ثلاث حصبات صغيرات أو أربعاً ، وجعلت تمررها من يد إلى أخرى بحركة آلية بطيئة . ثم لحت ونظرة متحيرة شاردة ابنها جان يصطاد مع السيدة روزميلي وسط حشائش البحر . فأخذت تتبعهما وتراقب حركاتهما ، وفهمت على شكل غامض وبغريزة الأم أنهما لم يكونا يتكلمان كما يتكلمان عادة . رأتهما متلازمين جنباً إلى جنب ، ينظران بعضهما إلى بعض في الماء ، يقفان وجهاً لوجه ، يسألان قلبيهما ، ثم يتسلقان ويجلسان على الصخرة ، يتحدثان الواحد باتجاه الآخر . كان سوادهما بارزاً بوضوح تام ، بادياً وحده في وسط الأفق ، يقتبسان في

الفضاء العريض، من السماء، من البحر، من الجروف، شيئاً ما من الضخامة والرمزية .

ونظر إليهما بغير أيضاً، وخرجت من شفتيه فجأة ضحكة جافة،
فقالت له السيدة رولاند دون أن تستدير نحوه :

— مالك ؟

فقال وهو ما يزال يضحك بهزء :

— أعتقد، أن تعلم كيف يتبأ المرء ليكون مخدوعاً .

فأصابها رجفة من غضب، من ثورة، وصدمتها الكلمة واغتازت
إذ فهمت ما يريد :

— عن تقول هذا ؟

— عن جان، يا للجنة ! إنه لمضحك جداً أن يُرى هكذا !

فتمتمت قائلة بصوت منخفض ومرتعش من التأثر :

— أوه ! ببيير، يالك من قاسر ! هذه المرأة هي الاستقامة عينها، ولن
يستطيع أخوك أن يجد أفضل منها .

فصرع يضحك ملء شذقيه بضحكة مقصودة مرتجة .

— ها ! ها ! ها ! الاستقامة عينها، النساء كلهن الاستقامة عينها .

وأزواجهن كلهم مخدوعون . ها ! ها ! ها !

وقامت من غير أن تتكلم فنزلت بحبوة منحدر الأرض المحصبة ،
لا تبالي خطر الانزلاق . خطر السقوط في الحفر المخبوءة تحت الحشائش ،
خطر انكسار ساقها أو ذراعها ، ذهبت تجري تقريباً ، ماشية عبر البرك ،
وهي لا تبصر ، مشت مباشرة نحو ابنها الآخر . وعندما رآها جان تقترب
صاح قائلاً :

— ما بك ؟ يا أماه ، هل قررت ؟

وبدون أن تجيب أمسكته من ذراعه ، كأنما لتقول له : « خلصني ،
دافع عني » .

ورأى اضطرابها ، فقال وهو جُدُّ مدهوش .

— كم أنت شاحبة ! مالك ؟

فقالت باختلاج :

— أكاد أسقط ، إنني خائفة فوق هذه الصخور .

وعندئذ قادها جان ، أسندها ، وأخذ يتحدث عن الصيد ليسترعي
انتباهها . ولما لم تستمع إليه ، ولما كان كذلك شديد الحاجة إلى أن يكشف
شخصاً ما عما في نفسه ، فقد جرّها بعيداً ، وقال بصوت خفيض .

— خمني ، ما الذي فعلته ؟

— ولكن .. ولكن .. لا أعلم .

— احزري .

— لا .. لا أعرف .

— إذن ، لقد قلت للسيدة روزميلي ، إنني أرغب في الزواج بها .

ولم تجب بشيء ، كان رأسها يطنّ ، وروحها في ضيق إلى درجة أنها لم تفهم إلا بصعوبة . فرددت :

— الزواج ؟

— نعم ، هل فعلت خيراً ؟ إنها لطيفة ، أليس كذلك ؟

— نعم ، لطيفة ، لقد فعلت خيراً .

— وإذن فأنت توافقيني ؟

— نعم .. أوافقك .

— كم تقولين هذا بظرافة . كنت أعتقد أن .. أنك غير مسرورة .

— طبعاً .. أنا .. مسرورة .

— صحيح ؟

— صحيح .

ولتبرهن له على صدق ما تقول ، أمسكته من ملء ذراعه وقبلته في وجهه بقبلات عظيمة للأم .

ثم ، وعندما مسحت عينيها إذ كانت فيهما دمعتان ، لمحت هناك على الشاطئ جسداً ممدداً على بطنه كالجثة ، وجهه على الأرض المحصبة : ذلك هو بيير ، الذي كان يفكر يائساً . وحيثما قادت ولدها جان بعيداً ، وتكلما قريباً من الموج لمدة طويلة عن هذا الزواج الذي ربط قلبه .

وطردهما البحر في مده نحو الصيادين فلحقا بهم ، ثم مضى الجميع إلى الشاطئ أيقظوا بيير الذي تظاهر بالنوم . وكان العشاء طويلاً جداً يرويه كثير من الخمر .

وفي العربة على طريق العودة غفا الرجال كلهم ما عدا جان . كان بوسير وروланд يتصادمان كل بضغ دقائق، كتف كل منهما بكتف الآخر المجاور . فتوقظهما الهزة ، فيتنصبان عندئذ ، وينقطعان عن الشخير ، يفتحان أعينهما ويتمتان :

« طقس جميل جداً » ويعاودان السقوط سريعاً إلى جهتين متخالفتين .

وعندما دخلوا الهاقر كان النعاس قد استولى عليهم لدرجة أنهم وجدوا صعوبة في إبعاده .. ورفض بوسير أن يذهب إلى بيت حان حيث الشاي بانتظارهم ، فودعوه أمام باب بيته .

هذه هي الليلة الأولى التي سينام فيها المحامي الشاب بمنزله الجديد ، وأمسكته فجأة فرحة طفولية عظيمة ، فأحب أن ترى خطيبته هذا المساء بالضبط المنزل الذي ستسكن فيه بعد حين .

كانت الخادمة قد ذهبت ، فأعلنت السيدة رولاند أنها ستسخن الماء ، وكانت تحب أن تقدم الشاي بنفسها ، لأنها لا ترغب أن تترك الخدم يسهرون لحوفها من النار . ولم يكن دخل المنزل بعد أحد غيرها هي وابنها والعمّال ، لتحفظ بالمفاجأة تامة عندما يرون كم هو منزل جميل . وفي المدخل طلب جان منهم الانتظار ، كان يريد أن يشعل الشمعات والمصابيح ، فترك في الظلام السيدة روزميلي وأباه وأخاه ، ثم صاح وهو يفتح الباب الكبير كله على مصراعيه : « تعالوا » .

كان الرواق الزجاجي المضاء بتيّبا ويقطع من الزجاج الملون المختبيء في شجيرات النخل وأشجار الكاوتشوك والأزهار يظهر كأنه زينة مسرح . وبقيت مفاجأة ثانية . دهش رولاند لهذه الرفاهية فستمت : « يا للجنة ! » وأمسكته رغبة في أن يصفق بيديه كما يفعل الناس أمام المتصرين .

ثم دخلوا إلى الصالة الأولى ، كانت صغيرة ، جدرانها مفروشة بقطعة قماش بلون الذهب القديم ، تشبه القماش الذي يغطي المقاعد ، وكانت الصالة الكبيرة للاستشارات ، وهي بسيطة جداً ، حمراء كلون سمك السلمون الشاحب ، فخمة المظهر .

وقعد جان على الأريكة أمام مكتبه المثقل بالكتب وقال بصوت وقور متصنع :

— نعم ياسيدتي ، إن نصوص القانون قطعية ، وهي تمنحني مع

الموافقة التي أعلتها لك ثقة مطلقة بأن القضية التي رافعنا فيها سنتهي إلى حل مفرح خلال ثلاثة أشهر .

كان ينظر إلى السيدة روزميلي التي أخذت تبتسم وهي تنظر إلى السيدة رولاند، فأخذت هذه يدها وشدت عليها . وقفز جان المتألق قفزة طلاب المدارس وصاح :

— هنن، كم الصوت واضح هنا، إن هذه الصالة مناسبة جداً للمرافعة، وأنشأ يخطب :

— لكن كانت الرحمة وحدها، لكن كانت مشاعر العطف الطبيعية هذه التي نعانيها متألمين هي سبب البراءة، فنحن نتوسل بشفتكم أيها السادة المحلفون، بقلوبكم، قلب الأب، قلب الإنسان، إلا أننا نملك معها القانون، وهو السبيل الوحيد للحق الذي سنرفعه إليكم .

ونظر بيير إلى هذا المنزل الذي كان سيكون منزله، وسخط على تصرفات أخيه الذي وجده آخر الأمر شديد البلاهة، غيباً . وفتحت السيدة رولاند باباً على الجين وقالت :

— هذه هي غرفة النوم .

وأخذت في بهرجة حبها كله، حب الأم ... كان قماش الجدران من (الكريتون) المصنوع في روان يحاكي النسيج النورماندي القديم . وكانت صورة للويس الخامس عشر تزين الجدار، وراعية غنم في ميدالية محاطة بمنقاري

حمامتين ، تسكب على الجدران والستائر والأرائك هيئة ظريفة ريفية غاية في اللطف .

قالت السيدة روزميلي :

— أوه ! إن هذا لرائع .

وغدت أكثر جدية عندما دخلت الغرفة . فسألتها جان .

— أيعجبك هذا ؟

— للغاية .

— فلتعلمي كم يهيجني ذلك .

وتبادلا النظر لحظة بكثير من الحنان المتوغل إلى أعماق أعينهما ومع ذلك فمنذ احتوتها غرفة النوم ، التي ستكون غرفة عرسها تضايقت قليلاً ، اضطربت قليلاً . ولاحظت وهي تدخل أن السرير عريض جداً ، سرير زواج حقيقي ، انتفته السيدة رولاند ولا شك ، لأنها رغبت في زواج ابنها قريباً . وأعجبتها حيلة الأم التي تبدو وكأنها تقول لها : إنهم ينتظرونها في الأسرة .

وعندما رجعوا إلى الصالة فتح جان فحاً الباب الأيسر ، فلمحوا غرفة الطعام المدورة ، فسحة فيها ثلاث نوافذ مزينة بمصابيح يابانية . وضعت الأم وابنها فيها كل طرفة ممكنة ، وكانت الغرفة مفروشة بأثاث الخيزران ، يزينها تمثال الماغو الصيني وقطرميزات خزفية وحرائر مزركشة بالذهب وستائر

شفافة عليها لآلئ زخاجية كقطرات من ماء، ومراوح مسمرة على الجدران لتثبيت القماش، ولوحات وسيوف وخوذات وطيور الكركي مصنوعة من ريش حقيقي، وأوان طريفة ناعمة من الخرف والخشب والورق والعاج والصدف والبرونز. كانت الغرفة ذات مظهر مغرور متكلف، صنعتها أيد غير ماهرة، وأعين عبر بصيرة بما تتطلبه رقة الأذواق والتربية الفنية، ومع ذلك فقد أعجبهم أكثر من غيرها.

وأندى ببيير وحده انتقادات مشفوعة بسخرية مرة قليلاً حرحت أنخاه. وانتصبت الفواكه فوق الطاولة على شكل أهرامات، وارتفعت أطباق الحلويات على شكل أنصاب تذكارية. لم يكونوا جائعين كثيراً، مصّوا الفواكه، وقضموا الحلويات قبل أن يأكلوها. ثم وبعد ساعة استأذنت السيدة روزميلي في الانصراف.

وتقرر أن يصحبها الأب رولاند حتى باب بيتها، وخرج حالاً معها، بينما كانت السيدة رولاند في غياب الخادمة تلقي نظرة أم على المنزل لئلا ينقص ابنها شيء. وسأل رولاند:

— أأرجع لأصطحبك؟

فترددت، ثم أجابت تقول:

— لا، يا حبيبتي، فلتنم، وسيصحبني بيير.

وبعد أن انصرفا أطفأت الشمعات، وخبأت الكاثو والسكر والنبيلد

في الخزانة التي ردت مفتاحها إلى جان ، ثم مضت إلى غرفة النوم ، وكشفت السرير قليلاً ، ونظرت إن كان الدورق مملوءاً بالماء البارد ، وإن كانت النافذة محكمة الإغلاق . وكان بيير وجان في الصالة الصغيرة ، هذا لا يزال منزعجاً من النقد الموجه إلى ذوقه ، وذاك مغیظاً جداً لرؤية أخيه في هذا المنزل . كانا يدخنان جالسين ، لا يكلم أحدهما الآخر . وقام بيير فجأة وقال :

— يا لللعة ! لقد كانت الأرملة مرهقة جداً اليوم ، لاتناسبها الرحلات .

وشعر جان بشيء يقيمه فجأة وعلى عجل ، واعتراه غضب رجل طيب ساخط ، مجروح في قلبه . ضاق نفسه ، واشتد تأثيره حتى إنه تلثم وهو يقول :

— أنا أمنعك من الآن فصاعداً أن تقول « الأرملة » عندما تتكلم عن السيدة روزميلي !

فاستدار بيير نحوه متعالياً وقال :

— أعتقد أنك تعطيني أوامر . أجننت إلى هذه الدرجة ؟

وانتصب جان حالاً يقول :

— لم أجن ، ولكن تصرفاتك معي بلغت حداً كافياً .

فضحك بيير هازئاً وقال :

— معك؟ هل أنت جزء من السيدة روزميلي؟

— اعلم أن السيدة روزميلي ستصبح زوجتي.

فضحك الآخر بشدة أكثر:

— ها! ها! حسناً جداً. فهمت الآن، لماذا لم يعد مسموحاً لي أن أدعوها «الأرملة». ولكك سلكت إحدى الطرق الظرفية لتعلن لي خبر زواجك.

— أنا أمنعك من السخرية.. تسمع.. أنا أمنعك منها!

واقترب حان شاحباً، يرتجّ صوته، مغيظاً من السخرية الموجهة للمرأة التي أحبها واختارها. وسخط بير فجأةً مثل أخيه، وتفجر في نفسه كل ما تكدر من غضب عاجز، من أحقاد مسحوقة، من ثورات مقهورة منذ زمن، من يأس صامت، وصعد ذلك كله إلى رأسه فدوّحه كضغط الدم، فقال:

— هل تحرؤ؟.. هل تحرؤ؟.. وأما أنا فأمرّك أن تسكت، أسمع، أنا آمرّك!

واستغرب جان هذا العنف، فسكت بضع لحظات باحثاً في ذهنه المضطرب الذي يعصف فيه الهيجان، عن الشيء الذي يستطيع أن يجرح به أخاه في الصميم، عن الجملة، عن الكلمة.. فأجاب وهو يجهد في تمالك نفسه، ليضرب أخاه بإحكام، وفي التكلم ببطء ليكون أكثر لذة:

— منذ وقت طويل وأنا أعرف أنك تحسدني ، منذ اليوم الذي بدأت تقول فيه «الأرملة» لأنك علمت أن هذا يسبب لي الضيق .

ودفع بيير واحدة من الضحكات الصارفة المستخفة المألوفة لديه وقال :

— ها ! ها ! يا إلهي ! أحسبك !.. أنا ؟.. أنا ؟.. أنا ؟.. وعلى ماذا ؟.. على ماذا يا إلهي ؟ على طلعتك أم على عقلك ؟..

وأحس جان جيداً أنه أصاب الجرح في هذه النفس فقال :

— نعم ، أنت تغار مني ، أنت حسود منذ طفولتك ، وغدوت حانقاً عندما رأيت هذه المرأة تفضلني ولا تريدك .

فتلثم بيير ، واغتاز من هذا الحسد وقال :

— أنا .. أنا .. أغار منك ؟ بسبب هذه البلهاء ، بسبب هذه الدجاجة الحبشية ، هذه الوزرة السمينة ؟

فأجاب جان وقد رأى أنه يكيل له الضربات :

— واليوم الذي جريت فيه أن تجدف أكثر مني في مركب اللؤلؤة ؟ وما قلته أمامها لترتفع في نظرها ؟ ولكنك تموت من الحسد ! وعندما وصلت إلي الثروة ، أصبحت حانقاً ، وكرهتني ، وأشرت إلى ذلك بكل الوسائل ،

وَأَلَمْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، وَلَمْ تَمُرْ بِكَ سَاعَةٌ دُونَ أَنْ تَمُجَّ الْمِرَاةَ الَّتِي تَكْتُمُ
أَنْفَاسَكَ .

وَأَغْلَقَ بِيَرٍ قَبْضَتَيْهِ مِنَ الْهَيْجَانِ ، وَسَاوَرَتْهُ رَغْبَةٌ لَا تَقَاوِمُ فِي أَنْ يَقْفِزَ
عَلَى أَخِيهِ ، وَيَأْخُذَ بِمَخْجَرَتِهِ . وَقَالَ :

— آه ! اسْكُتْ ، لَا تَتَكَلَّمُ عَنْ هَذِهِ الثَّرْوَةِ !

فَصَاحَ جَان :

— وَلَكِنْ الْحَسَدُ يَرْشَحُ مِنْ جِلْدِكَ . لَمْ تَتَحَدَّثْ مَعَ أَبِي وَأُمِّي أَوْ
مَعِيَ أَنَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا وَالْحَسَدُ ظَاهِرٌ فِيهَا . إِنَّكَ تَبْدِي احْتِقَارِي لِأَنَّكَ
حَسُودٌ ! تَخَاصِمُ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِأَنَّكَ حَسُودٌ . وَالْآنَ ، وَلَمَّا أَصْبَحْتَ غَنِيًّا لَمْ
تَعُدْ تَهْتَمُ بِنَفْسِكَ ، أَمْسَيْتَ سَامًا ، تَنْكُلُ بِأَمْنًا كَمَا لَوْ أَنَّ ذَلِكَ غَلَطَتْهَا هِيَ !
وَتَرَاوَجَ بِيَرٍ حَتَّى الْمَدْفَأَةَ ، فَمَهْ نَصَفَ مَفْتُوحٍ ، عَيْنُهُ مَتْسَعَةٌ ، وَقَدْ
تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ وَاحِدَةٌ مِنْ حِمَاقَاتِ الْكَلْبِ الَّتِي تَدْفَعُ لَارْتِكَابَ الْجُرَائِمِ . وَرَدَدَ
قَائِلًا بِصَوْتٍ أَكْثَرَ انْخِفَاضًا ، وَلَكِنَّهُ لَاهُثُ :

— اسْكُتْ ، اسْكُتْ إِذْنُ !

— كَلَّا . مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَبْرَحَ لَكَ بِأَفْكَارِي كَامِلَةً ،
وَهَا أَنتَ قَدْ مَنَحْتَنِي الْفُرْصَةَ ، فَيَا لِحَقَارَتِكَ أَنَا أَحَبُّ امْرَأَةٍ ! وَأَنْتَ تَعْرِفُ
هَذَا ، وَتَسْخَرُ مِنْهَا أَمَامِي ، وَأَنْتَ تَتِيْرُ غَضْبِي ، فَيَا لِحَقَارَتِكَ . وَلَكِنْ سَأُكْسِرُ
أَسْنَانَكَ ، أَسْنَانَ الْأَفْعَى ، أَنَا ! سَأُجْبِرُكَ عَلَى أَنْ تَحْتَرِمَنِي .

— أحترمك . أنت !

— نعم ، أنا !

— أحترمك .. أنت .. الذي أخزيتنا جميعاً بطمعك ؟

— ماذا قلت ؟ أعد .. أعد ؟

— أقول إنه لا ينبغي أن يقبل أحد إرثاً من رجل وهو يُعرف أنه ابن رجل آخر .

وبقي جان ساكناً لم يفهم ، مشدوهاً تلقاء هذا التعريض الذي استشعره . وقال :

— كيف ؟ قلت .. أعد مرة أخرى ؟

— قلت لك الذي يتهامس به الناس كلهم ، الذي ينشره الناس كلهم .. إنك ابن الرجل الذي ترك لك ثروته . والولد النظيف لا يقبل مالاً يخزي أمه .

— بيب .. بيب .. بيب .. كيف تفكر بهذا ؟ .. آنت .. آنت .. أنت الذي يلفظ هذا العار ؟

— نعم .. أنا .. أنا . وإذن فأنت لم تر كيف كنت أموت من الكآبة ، ومنذ شهر ، وكيف كنت أقضي الليل ساهراً ، والنهار مختبئاً كأنني حيوان .. لم أعد أعرف ما أقول ولا أعلم ماذا أفعل ، ولا ما سيجري لي ، إلى

درجة الألم .. إلى درجة أنني خفت من العار ومن الألم ، لأنني حدثت أولاً .. وعلمت الآن .

— بيير .. اسكت .. أمي في الغرفة المجاورة ! فكر في أنها ربما تسمعنا .. في أنها تسمعنا .

كان يلزمه أن يفرغ قلبه ! وأن يقول كل شيء ، شكوكه ، استدلالاته ، صراعاته ، يقينه ، قصة الصورة التي اختفت مرة أخرى . كان يتكلم بجمل قصيرة مبتورة ، بدون تتابع تقريباً ، جمل رجل يهذي . وبدأ الآن أنه نسي جان ونسي أمه في الغرفة المجاورة . كان يتكلم كما لو لم يكن أحد يصغي إليه ، يجب أن يتكلم لأنه كان شديد الألم ، مضغوطاً شديد الانضغاط ، يتضخم جرحه الملثم مثل دملة ، وقد فقت الآن هذه الدملة فلطخت الناس كلهم . أخذ يمشي كما يمشي كل يوم تقريباً ، عيناه مثبتتان أمامه ، يومئ في هيجان من القنوط ، وفي حنجرتة شهيق . رجعت الكراهية إليه ، كان يتكلم كما لو اعترف بيؤسه ويؤس أهله ، كما لو ألقى ألمه في الهواء الأصم غير المرئي الذي تطير فيه كلماته .

واضطرب جان ، واقتنع فجأة باندفاع أخيه الأعمى . استند إلى الباب الخلفي ، وقد تنبأ أن أمهما كانت تسمعهما منه . لم تستطع أن تخرج ، كان يجب أن تمر من الصالة . إنها لم ترجع ، وإذن لم تكن تجرؤ .

وفجأة ضرب بيير الأرض بقدمه وصاح :

— يا لللعنة، قلت هذا، لأنني خنزير!

واختفى في الدرج عاري الرأس، فاستيقظ جان من خدعه العميق الذي كان سقط عليه، على خبط الباب الخارجي الكبير الذي اصطفق في شدة، ومضت عليه بضع ثوان أطول من ساعات، كانت فيها روحه تسترخي في بلاهة أحمق. شعر أنه يجب عليه التفكير بسرعة والتصرف، ولكنه تريت ولم يشأ بسبب الخوف والضعف والجبن أن يفهم ولا أن يعرف ولا أن يتذكر. كان في طبعه من المسوفين الذي يؤجلون الأشياء إلى غد. وعندما يتوجب عليه اتخاذ قرار فوري يفتش بالغريزة ليكسب بعض اللحظات.

وفجأة أفرعه السكون العميق الذي لفه بعد زعيق بيير، السكون الفجائي النابع من الجدران والأثاث، مع الإضاءة الخفية لست شمعات وسراجين اثنين، أفرعه بشدة حتى رغب في الهروب.

نفض أفكاره، هز قلبه، حاول أن يفكر.. لم يلاق في حياته قط صعوبة واحدة. إنه لمن أناس ينساقون كالماء الجاري. تجاوز صفوف مدرسته بمجد ودونما عقوبة، وأنهى دراسته في القانون بانتظام لأن حياته كانت هادئة. وبدت له الأشياء في العالم طبيعية كلها، فلم ترقظ انتباهه بوجه ما. أحب بطبعه النظام والتعقل والراحة، ولم يكن يعاني في نفسه عقداً، فظل تجاه هذه المصيبة كرجل سقط في الماء وهو لا يعرف السباحة.

حاول أن يشك أولاً. أيكذب أخوه بسبب حقهه وغيرته؟ أليس مع

ذلك بائساً بما فيه الكفاية، تألهاً من اليأس حينما يقول عن أمهما مثل هذا. ثم إنَّ جان احتفظ ببعض كلمات بير في أذنه، في نظرته، في أعصابه، وحتى في أعماق لحمه، واحتفظ كذلك ببعض صيحات ألمه، بنغماته، بحركاته الشديدة الانزعاج التي لم تكن تقهر أو يعترض عليها وكأنها اليقين.

ظل عاجزاً لا يستطيع القيام بحركة أو التصرف بإرادة، وأصبح ضيقه لا يحتمل، وشعر أن وراء الباب أمه، هناك التي تسمع كل شيء وتنظر. ماذا تفعل؟ ما من حركة، تظهر وجود كائن خلف لوح الباب، ما من اهتزاز، ما من تنهدة. هل فرت؟ ولكن إلى أين؟ إن كانت فرت.. فقد قفزت إذن من النافذة إلى الشارع!

وأقامته رجفة من رعب، سريعة جداً، فدفَعَ الباب دفعاً، لم يفتحه.. واندفع إلى غرفته. بدت فارغة، كانت شمعة وحيدة تضئها، موضوعة على الصوان. واندفع جان نحو النافذة، كانت مغلقة بدرقاتها المقفلة. فاستدار ينقب في الزوايا بنظرته القلقة، فلمح ستائر السرير مغلقة فجري وكشفها. كانت أمه ممددة في سريره، وجهها مدفون في الوسادة تشدها بكلتا يديها المتشنجتين، كيلا تسمع بعد.

اعتقد أولاً أنها اختنقت. ثم أمسكها من كتفها، وأدارها دون أن تترك الوسادة التي تحبب وجهها، والتي كانت تعضّ عليها لئلا تصرخ. وأوصل إليه ملامسة هذا الجسم المتصلب، وهاتين الذراعين المتشنجتين،

رجة من عذابها الذي لا يوصف . وجعلته الطاقة والقوة اللتان تمسك بهما بأصابعها وبأسنانها القماش المنفوخ بالريش على فمها ، على عينيها ، على أذنيها ، كيلا يراها ، وكيلا يكلمها ، جعلته هذه الطاقة يتنبأ بالصدمة التي تلقتها ، وبالحمد الذي وصل إليه ألبها . وتمزق قلبه ، قلبه الساذج من الشفقة . لم يصبح قاضياً بعد ، هو نفسه قاضٍ رحيم . كان رجلاً مملوءاً بالضعف ، وابناً مملوءاً بالحنان . لم يتذكر شيئاً مما قاله له الآخر ، لم يفكر ، لم يناقش ، لمس فقط بكلتا يديه جسد أمه الجامد ، ولم يستطع أن ينتزع الوسادة عن وجهها ، صاحب وهو يقبل ثوبها :

— أمي ، أمي ، أمي المسكينة ، انظري إليّ !

وبدت ميتة لولا أن أعضاءها كلها كانت تنتابها رعدة غير محسوسة تقريباً واهتزاز لحبل ممدود . وردد يقول :

— أمي ، أمي ، أصغي إليّ ، ليس هذا صحيحاً ، أعرف حقاً أن ليس هذا صحيحاً . وانتابها تشنج واختناق ، ثم فجأة شهقت في الوسادة ، وعندئذ استرخت أعصابها كلها ، ولانت عضلاتها المتصلبة ، وانفجرت أصابعها ، فتركت الوسادة وكشفت وجهها .

كانت شاحبة كل الشحوب ، بيضاء تماماً ، أجفانها مطبقة ، رأى قطرات ماء تسيل . ضمها من عنقها ، وببطء قبل عينيها قبلات كثيرة فيها أسف ، قد بللتها الدموع ، وكان يردد :

— أمي ، أمي الغالية ، أعلم تماماً أن هذا غير صحيح . لا تبكي ،
أعرف ذلك ! هذا غير صحيح !

جلست ، ونظرت إليه ، وبجهد الشجاعة المطلوبة للالتحار في بعض
الأحوال قالت له :

— لا ، هذا صحيح يا بني .

وبقيا صامتين لبعض لحظات ، الواحد باتجاه الآخر ، واختنقت وهي
تمدّ حنجرتها وتقلب رأسها لتستنشق ، ثم سيطرت على نفسها من جديد ،
واستأنفت تقول :

— هذا صحيح يا بني ، ولماذا الكذب ؟ هذا صحيح . لو أنني
كنت أكذب لما كنت تصدقني .

وانخذت هيئة مجنونة أمسكها الرعب ، فسقط على ركبتيه قرب
السريـر وهو يتمتم :

— اسكتي يا أمي ، اسكتي .

وقامت بتصميم وقدرة مرعبتين وقالت :

— ولكن لم يعد لدي شيء أقوله لك . وداعاً يا بني .

ومشت نحو الباب ، فأمسكها بلء ذراعيه وهو يصيح :

— ماذا تفعلين يا أمي ؟ أين تذهبين ؟

— لا أدري .. كيف أدري !.. لم يعد لدي شيء لأفعله .
وحيدة وتخطبت لتهرب . أمسكها ، لم يجد إلا كلمة واحدة يرد ،
— أمي ، أمي ، أمي ..

فقالت وهي تحاول جاهدة أن تفلت من قبضته :

— لا ، لا ، لم أعد الآن أملك ، لم أعد شيئاً بالنسبة إليك
إلى أي إنسان . لا شيء ، لا شيء ! لم يعد لك أب ولا أم يا ولدي الم
وداعاً .

وفهم فجأة أنه لو تركها تذهب فلن يراها بعد أبداً ، ورفع
إلى أريكته ، فأجلسها بقوة ، ثم ركع على ركبتيه وقد شكّل طوقاً .
حولها وقال :

— لن تخرجي أبداً من هنا ، يا أمي ، أنا أحبك ، وأنا أح
أحملك دائماً ، فأنت لي .

فتمتصت بصوت مرهق :

— كلا يا ولدي المسكين ، هذا لا يمكن ، أنت تبكي الآ
ستلقيني إلى الخارج ، ولن تعذرني في أي حال .

— أواه ! أنا ؟ أنا ؟ إنك لا تعرفين عني إلا القليل .

قال ذلك باندفاع شديد لحب مخلص، حتى إنها أطلقت صيحة، فأخذت رأسه وأمسكته من شعره بملء يديها، وجرت به عنقه وقبلته بشرود في وجهه، ثم بقيت ساكنة، خدها إلى خد ولدها، وهي تشعر من خلال لحيته بحرارة لحمه، وقالت له بصوت خفيض جداً في أذنه:

— لا، يا ولدي العزيز جان، إنك لن تعذرني غداً. إنك تعتقد ذلك وتخدع نفسك، تغفر الآن، هذا الغفران أنقذ حياتي، ولكن لم يعد من الضروري أن تراني.

فردد وهو يسكها:

— أمي، لا تقولي هذا!

— بلى يا صغيري، يجب أن أذهب. لا أدري إلى أين، ولا كيف سأفعل، ولا ما سأقول، ولكن يجب أن أذهب. لم أعد أجرو أن أنظر إليك ولا أن أقبلك، أتفهم؟

وعندئذ قال لها بدوره، وبصوت هامس في أذنها:

— يا أمي العزيزة، ستبقين، لأنني أريد هذا، لأنني محتاج إليك، وستحلفين على موافقتي حالاً.

— كلا يا ولدي.

— أواه، أمي، يجب أن تفعل ذلك، أسمعين، يجب.

— كلا يا ولدي، هذا مستحيل. هذا سيحكم علينا كلينا أن نكون في جحيم. أنا أعلم ما هذا، أنا، أعلم أنها عقوبة بدأت منذ شهر. أنت تشفق علي. ولكنك بعد ذلك ستنظر إليّ مثلما ينظر بيير، عندما ستذكر قولي!.. أواه يا عزيزي جان، فكر.. فكر أنني أملك!..

— لا أريد أن تتركيني يا أمي، أنا لست إلا أنت.

— ولكن فكر يا ولدي، أننا لن نستطيع أن يرى بعضنا بعضاً دون أن نعتبرنا حمرة الخجل كلينا، دون أن أشعر أنني أموت من الحزي، دون أن تنخفض عينايا أمام عينيك.

— ليس هذا بصحيح يا أماه.

— بلي، بلي، بلي هذا صحيح! أواه! لقد فهمت كل صراعات أخيك المسكين، كلها، منذ اليوم الأول. والآن حينما أحس بخطواته في البيت يقفز قلبي، ويكاد يكسر صدري، حينما أسمع صوته، أشعر أنني سيغمي عليّ، كنت ما تزال لي! والآن لم تعد أنت لي. أواه! يا صغيري جان، أعتقد أنني سأستطيع أن أحيا بينكما؟

— نعم يا أمي سأحبك كثيراً إلى درجة تجعلك لا تفكرين بذلك.

— أواه! أواه! كم يستحيل ذاك!

— بلي هذا ممكن.

— كيف تريدني ألا أفكر في ذاك بين أخيك وبينك؟ ألن تفكرا فيه
أننا؟

— أنا، أقسم لك .

— ولكنك ستفكر به بعدد ساعات اليوم كلها .

— كلا، أحلف لك . وثم ، اسمعي : إن أنت خرجت فسانتسب إلى
الجيش ، وسأنتحر .

فهاجها هذا الوعيد الصبياني ، وعانقته وهي تمسح عليه بحنان
عاطفي وأجابته :

— إنني أحبك فوق ما تعتقد ، أكثر مما تعتقد ، أكثر مما تعتقد ، هيا
كن عاقلاً . جرب أن تبقى فقط ثمانية أيام ، أتعدني ، ثمانية أيام؟ أنت
لا تستطيع أن ترفض لي هذا الطلب؟

ووضعت يديها فوق كتفي جان ، وأخذته بطول ذراعها وقالت :

— يا بني .. لنحاول أن نكون هادئين ، وألا نتأثر . دعني أقل لك
أولاً ؛ لو سمعت مرة واحدة من شفتيك ذاك الذي أسمعه منذ شهر من فم
أخيك ، لو رأيت مرة واحدة في عينيك ذاك الذي أقرأه في عينيه ، لو
شعرت فقط بكلمة أو بنظرة ، لو أحسست أنك تكرهني مثلما يكرهني ..
وبعد ساعة سأذهب إلى الأبد ، أسمع ، بعد ساعة .

— أمي ، أقسم لك على ذلك ...

— دعني أتكلم .. منذ شهر وأنا أتألم ، بكل مايمكن أن يتألمه مخلوق ، بدءاً من اللحظة التي فهمت فيها أنّ أخاك ، أن ولدي الآخر يشك فيّ ، وأنه يحسد الحقيقة ، دقيقة بعد دقيقة ، كنت أتذوق النكال في كل لحظة ، وعلى وجه يستحيل معه أن أصفه لك .

كان صوتها مؤثراً ، بحيث ملأت عدوى عذابها الدموع في عيني جان ، أراد أن يعانقها ، فدفعته قائلة :

— دعني .. أصغ .. عندي بعدُ أشياء كثيرة لأقوها لك لتفهم .. ولكنك لن تفهم .. ذلك أنني .. لو بقيت .. فيجب .. لا ، لا أستطيع ! ..
— قولي يا أمي ، قولي .

— حسناً ، نعم ، على الأقل لن أخادع .. تريد أن أبقى معك ، أليس كذلك ، ولهذا ، فلنكي نستطيع أن ننظر بعضنا إلى بعض ، ونحدث ، ونلتقي كل يوم في البيت ، لأنني لم أعد أجروّ على فتح باب ، أخاف أن أجد أخاك خلفه ، لهذا يجب ، لا لأجل أن تغفر لي ، فما بقي شيء يسبب لي الألم سوى الغفران ، بل لئلا تستاء مما فعلت .. يجب أن نحس إحساساً قوياً يختلف عن أحاسيس الناس كلهم ، كي أقول لك : «لست ابن رولاند» دون أن يحمرّ وجهك من هذا ، ودون أن تحتقري .. كفاني ما تألمت منه .. تألمت كثيراً جداً ، ولم أعد أستطيع ، لا ، لم أعد أستطيع ! لم

يكن ألمي منذ الأمس، إنه بدأ من وقت طويل.. ولكنك لن تستطيع أن تفهم هذا، أنت ! ولكي نستطيع أن نعيش بعد معاً، ويضم بعضنا بعضاً يا عزيزي جان، يجب أن أقول لك : إنني كنت عشيقاً أليك، كنت له أكثر من ذلك، زوجة، زوجته الحقيقية، وإنني لا أحمل خزيّاً في أعماق قلبي، وإنني لست آسفة أبداً، وإنني لا أزال أحبه، ولو أنه مات، وإنني سأحبه مدى الأيام، وإنني لم أحب أحداً سواه، وإنه كان حياتي كلها، بهجتني كلها، ألمي كله، عزائي كله.. كل شيء، كل شيء، كل شيء بالنسبة لي وخلال وقت طويل جداً ! أصغ إلي يا صغيري، أقول أمام الله الذي يطلع عليّ : إنه ما كان لي شيء جميل في حياتي، لو لم ألتق به، أبداً، لا حنان، لا لطافة، لا ساعة من تلك الساعات التي تجعلنا نأسف كثيراً أسف الشيخوخة. أبداً ! لا شيء، إنني مدينة له بكل شيء ! لم يكن لي إله في العالم، ثم أنتما الاثنان، أخوك وأنت. وبدونكم كانت الحياة ستكون فارغة، سوداء، فارغة كالليل. ما كنت أحب شيئاً، ما كنت أعرف شيئاً، ما كنت أرغب بشيء. وما كنت لأبكي لأنني بكيت يا صغيري جان، أواه ! بكيت عندما جئنا إلى هنا. لقد وهبت له نفسي كلها جسداً وروحاً، بسعادة دائمة وخلال أكثر من عشر سنوات، كنت زوجته أمام الله الذي جعل الواحد منا للآخر، كما كان هو زوجي. ثم فهمت أن حبه لي كان أقل من حبي له، كان طيباً دائماً، ودوداً. انتهى ذلك ! أواه ! كم بكيت.. ! كم كان ذلك تعيشاً وخادعاً، الحياة.. لا شيء يستمر.. ووصلنا إلى هنا، ولم أعد أراه، لم يأت أبداً.. كان يعد في رسائله كلها.. ! كنت أنتظره دائماً.. !

وما عدت أراه ! وها هو ذا قد مات !.. ولكنه كان يحبنا أيضاً مادام قد فكّر بك . أنا سأحبه حتى آخر آهة عندي ، ولن أتبرأ منه أبداً ، وأحبك لأنك ابنه ، ولا أخجل من ذلك أمامك ! هل تفهم ؟ لا أخجل ! فإن كنت تريد بقائي فيجب أن ترضى أبوته لك ، وأن نتحدث عنه بعض الأحيان ، وأن تحبه قليلاً ، وأن تفكر به عندما ينظر بعضنا إلى بعض . وإن كنت لا تريد ، إن كنت لا تستطيع ، فالوداع يا عزيزي . ومن المستحيل أن نبقى معاً ! وسأنفذ ما تقرره أنت .

فأحاط جان بصوت ناعم :

— ابقِ يا أمي .

فشدته على ذراعيه ، وشرعت تبكي من جديد ، ثم استأنفت تقول ، وخذها إلى خده :

— نعم ، ولكن بيير ؟ ماذا سيكون حالنا معه !

فتمتم جان :

— سنجد شيئاً ما ، فما عدت تستطيعين الحياة بقربه .

وتشنجت من الانزعاج مع ذكريات ابنها الكبير وقالت :

— لا ، لم أعد أستطيع ، لا لا لا !

وصاحت وهي ترتقي على صدر جان ضيقة الروح :

— خلصني منه، أنت يا بني، خلصني، افعل شيئاً ما، لست أدري .. ابحث .. خلصني !

— نعم يا أمي، سأبحث.

— حالاً .. يجب .. حالاً .. لا تتركني ! إنني خائفة منه جداً .. خائفة جداً !

— نعم سأجد، أعدك .

— أوه، ولكن سريعاً، سريعاً، أنت لا تفهم ما يحدث بنفسني عندما أراه . ثم تتمت بصوت منخفض جداً في أذنه :

— خبئني هنا، عندك .

تردد، فكّر، فهم بعقله الإيجابي الخطر من هذا التدبير . ولكن كان عليه أن يبحث طويلاً، ويناقش، ويقاوم جنونها وذعرها بالحجج الدقيقة .
قالت :

— فقط هذه الأمسية، فقط هذه الليلة . ستبعث غداً لرولان من يقول له : إنني كنت مريضة .

— ليس هذا ممكناً مادام يبير قد كان هنا . هيا، لتتحلي بالشجاعة . سأرتب كل شيء، أعدك ، منذ الغد سأكون في البيت الساعة التاسعة . هيا ، البسي قبعتك ، وسأوصلك .

— سأفعل ما تريد .

قالت ذلك باستسلام طفولي خائف وشاكر . وحاولت أن تقوم ، ولكن هزتها كانت قوية جداً ، فلم تستطع أن تقف على ساقيها ، فسقاها ماءً محلياً وأنشقتها من النشادر ، وغسل صدغها بالخل . تركته يفعل وهي محطمة . ثم سكنت آلامها كما يحدث عادة بعد الولادة . وأخيراً استطاعت أن تمشي ، فأخذت ذراعه .

أعلنت الساعة الثالثة عندما مرا أمام عمارة البلدية . وقبلها أمام باب البيت ، وقال لها :

— الوداع يا أمي ، تشجعي .

صعدت بخطى خفية على الدرج الصامت ، دخلت غرفتها ، خلعت ملابسها بسرعة ، وبالتأثر الذي تحسه الحاطقات القديمات انسلت لتنام بجانب رولاند الذي كان يشخر .. وكان يبر الساهر الوحيد في البيت . وسمع بها تعود .

عندما دخل جان شقته ارتقى على الأريكة الكبيرة. كانت الكتابة والهموم التي دفعت أخاه إلى الجري والهروب كحيوان مطارد يتصرف بخلاف طبيعته الفاترة، كسرت له هو قدميه وذراعيه. شعر أنه رخوا لا يقدر على الإتيان بحركة، لا يستطيع الذهاب إلى فراشه، رخوا في جسده وروحه، مهشم، مدمر. لم يُصب مثل بيبو في صفاء حبه البنوي، ولم يطعن في هذا الشرف الخفي الذي هو غلاف القلوب الفخورة، بل أرهقته ضربة القدر الذي هدد في الوقت نفسه كل اهتماماته العزيزة إلى قلبه.

وعندما هدأت روحه، وعندما اتضحت أفكاره التي كانت كماء النبع عشت به الأيدي وحركته. واجه الوضع المنكشف له. لو أنه علم سرّ ولادته بطريقة أخرى لأحسّ يقيناً بالسخط، ولتأثر من صميم فؤاده. ولكن بعد نزاعه مع أخيه، وبعد هذه الوشاية العنيفة والزعرعة الفظة لأعصابه، والانفعال الحاد في اعتراف أمه فقد قدرته على الثورة. وكانت الصدمة التي

تلقاها بحساسيته، شديدة تكفي لتطرد في حنان لا يوصف كل الأحكام المسبقة، وكل النزق المقدس لعلم الأخلاق الطبيعية. ثم إنه من جهة أخرى لم يكن رجل مقاومة. لم يكن يحب القتال ضد أحد وخاصة ضد نفسه هو؛ فاستسلم إلى الحياة الناعمة الهادئة، ويميل غريزي وحب للراحة فطري. وأحس بالقلق والخوف من الإزعاجات التي سوف تتدفق حوله وتصيبه في الوقت ذاته. وتنبأ بأنها حتمية، ولكي يعدها قرر أن يبدل مجهوداً يفوق مجهود البشر، قدرة وحيوية. يلزمه سريعاً بدءاً من الغد أن يجتاز الصعوبة، لأن في طبعه حاجة ملحة للحلول الآتية التي تنشئ القوة من ضعف كان عاجزاً منذ زمن طويل عن امتلاك الإرادة. ثم إن روح المحامي فيه متعودة من جهة ثالثة على فصل الحالات المعقدة ودراستها، متعودة على المسائل الداخلية للأمر المضطربة؛ ولهذا كشف حالاً كل النتائج المتوقعة الحدوث من حالة أخيه النفسية، تخيل رغماً عنه الخطوات التالية من وجهة نظر مهنية تقريباً، فكان كما لو أنه ينظم لبعض زبائنه علاقات مستقبلية بعد حادثة أخلاقية. سيستحيل أي تعامل مستمر مع بيير. أما هو فيمكن أن يتحاشى أخاه بسهولة بالبقاء في منزله، ولكن المرفوض استمرار إقامة أمهما تحت سقف يظل ابنها الأكبر.

وفكر طويلاً وهو ساكن على الوسائد يتخيل التدابير ويفرضها دون أن يجد تدييراً يرضيه.

وهجمت عليه فجأة فكرة: هذه الثروة التي تسلمها، أيكون شريفاً

ذاك الذي يحتفظ بها؟ أجاب أولاً « لا » . وقرر أن يؤتيها الفقراء . هذا قاسر
لا بأس سيبع أمتعه ويشغل كالأخرين ، كما يشتغل كل الذين يتدثون
حياتهم . كان هذا القرار الرجولي المؤلم يسوط شجاعته . نهض من مكانه ،
ومضى فوضع جبهته على الزجاج . كان فقيراً وسعود فقيراً ، ولن يمته الفقر
على كل حال . نظرت عيناه إلى مصباح الغاز الذي يشتعل تجاهه في
الشارع . وبينما كانت امرأة متأخرة تمر على الرصيف ، خطرت بباله السيدة
روزميلي فجأة . وانتفض قلبه بانفعالات عميقة تتولد في الإنسان من فكرة
طاغية . وهدت له في وقت واحد كل نتائج قراره السلبية . يجب أن يعدل عن
الزواج من هذه المرأة ، يعدل عن السعادة ، يعدل عن كل شيء ، يستطيع
أن يعدل ، الآن وهو الذي ارتبط بها ؟ لقد رضيت به وهي تعرف أنه غني .
أما وهو فقير ، فإنها ترضى أيضاً ؛ ألا يحق له أن يطلب منها هذه التضحية ،
أن يفرضها عليها ؟ أهذا أحسن من الاحتفاظ بالمال أمانة يعيدها فيما بعد
إلى المعوزين ؟ وكانت كل اهتماماته المستترة تصطرع وتتقاتل في روحه التي
تأخذ فيها الأنانية أقنعة شريفة . وتخلت الحيرة الأولى عن مكانها للحجج
البارعة ، ثم عاودت الظهور ، ثم أمحت من جديد .

عاد فقعده ، وهو يبحث عن حجة قطعية ، عن عذر قوي جداً
ليثبت تردداته ، وليقنع استقامته الفطرية . وطرح هذا السؤال عشرين مرة :
« مادمت ابناً لهذا الرجل الذي عرفته وقبلت به ، أليس طبعياً أن أروضي
بميراثه كذلك ؟ » ولكن هذه الحجة لم تستطع أن تمنع كلمة « لا » التي تتمم
بها وعيه الداخلي .

وفكر فجأة: طالما أنني لست ابناً لذلك الذي كنت أعتقد أنه والدي ، فلم أعد أستطيع أن أقبل منه شيئاً ، لا في حياته ولا بعد موته ، ليس هذا لائقاً ولا عادلاً . هذا سرقة لأخي .

أراحته هذه الطريقة الجديدة في الرؤية ، وخففت من تأثيره ، فاستدار نحو النافذة . قال : نعم ، يجب أن أتخلى عن ميراث أسرتي الذي سأتركه لبيير كاملاً ، مادمت ابناً لغير أبيه ، هذا صحيح . أليس صحيحاً إذن أن أحفظ بمال أبي لي ؟

وبعد الاعتراف الذي لا يمكنه إقراره أن يستفيد من ثروة رولاند ، وبعد قراره أن يتخلى عنها كاملة . وافق منساقاً أن يحتفظ بثروة ماريشال ، لأنه وهو يرفضهما كليهما سيكون مصيره التسول فحسب .

وبعدما حلّ هذه القضية الدقيقة ، عاد إلى قضية وجود بيير في الأسرة . كيف يبعده ؟ ويمن أن يكشف حلاً عملياً ؛ وعندما سمع صوت إحدى السفن البخارية وهي تدخل الميناء ، بدا له كأنما تلقى جواباً يوحي بفكرة ، وتمدد على سريره وهو مرتد ثيابه ، واستغرق في خيالاته حتى بزوغ النهار .

وفي حوالي الساعة التاسعة خرج ليتأكد إن كان تنفيذ مشروعه ممكناً ، ثم ، وبعد بضع جولات وزيارات ، رجع إلى بيت أهله ، حيث كانت أمه تنتظره معترلة في غرفتها ، وقالت :

- ما كنت أجرؤ على النزول أبداً لو لم تأت .
- وسمع على الأثر صوت رولاند وهو يصيح على الدرج :
- لن نأكل أبداً هذا اليوم ، يا للعة !
- ولم يجب أحد ، فزعق :
- جوزفين ، يا للعة الله ! ماذا تفعلون ؟
- وخرج صوت الخادمة من أعماق القبو :
- هاأنذا ، سيد ... دي ، ما ، لـ ، لك .
- أين سيدتك ؟
- سيدتي فوق مع الـ .. سيد جان .
- وعندئذ زعق وهو يرفع رأسه نحو الطابق الأعلى ونادى :
- لويـز ؟
- وفتحت السيدة رولاند الباب قليلاً وأجابت :
- ماذا ؟ يا صديقي ؟
- ألا نأكل إذن ، يا للعة .

— ها نحن أولاء، يا صديقي، نحن قادمون .

ونزلت يتبعها جان . وصاح رولاند وهو يلمح الفتى :

— عجباً، أنت هنا، أنت ! ضجرت سريعاً من منزلك .

— لا، أيها الأب، ولكن كنت أتحدث مع أمي هذا الصباح .

وتقدم جان ويده مفتوحة، وعندما أغلقت على أصابعه قبضة العجوز الأبوية، أحس بشعور غريب غير متوقع شتجه، شعور الافتراق والوداع النهائي .

وسألت السيدة رولاند :

— ألم يصل بير ؟

فهرز زوجها كتفيه وقال :

— لا، ولكن لا بأس، إنه يتأخر على الدوام، ولنبدأ بالأكل من دونه .

فالتفت نحو جان وقالت :

— يجب أن تذهب لتحضره يا بني، سيتألم إن لم ينتظره أحد .

— نعم، يا أمي، سأذهب إليه .

وخرج الشاب ، فصعد الدرج في عزم امرئ مضطرب خائف يقدم على قتال . وعندما قرع الباب أجاب بـير :

— ادخل .

دخل . كان الآخر يكتب عاكفاً على طاولته . قال جان :

— طاب يومك .

فقام بـير ، وقال :

— طاب يومك .

ومدا أيديهما كما لو لم يحدث بالأمس شيء .

— ألا تريد أن تنزل لتتغدى ؟

— ولكن .. هذا .. عندي أعمال كثيرة .

كان صوت الأكبر يرتجف ، وعينه زائغة . وسأل أخاه ماذا يجب أن يفعل .

— لأنهم ينتظرونك .

— آه ! هل .. هل أتنا تحت ؟

— نعم . إنها هي نفسها التي أرسلتني لأجيء بك .

— آه ! إذن .. أنزل .

وأمام باب الغرفة تردد أن يظهر الأول ، ثم فتحه بحركة متقطعة أباه وأمه جالسين إلى الطاولة وجهاً لوجه .

اقترب منها أولاً ، ودون أن يرفع عينيه ، ودون أن يلفظ كلمة ، واقترب من جبهتها فقبلها فيها عرضاً عن تقبيلها في خديها كما كان يفعله قبل ، وأحس أنها تقرب منها ، ولكنه لم يشعر بشفتيها على جلده ، واذن قلبه يخفق بعد هذا التظاهر بالملاطفة وتساءل : « ماذا قال بعد خروجه وكان جان يردد بحنان : « أمي » و « أمي العزيزة » وهو يأخذ في العناية ويحدهما ، ويسكب لها لتشرب . ففهم بير عندئذ أنهما كانا قد بكيا ولكنه لم يستطع أن يدخل إلى أفكارهما ! أكان جان يعتقد أن أمه مذنب أن أخاه شرير ، وهاجمته من جديد كل المآخذ التي صنعها بنفسه الاكتشاف الفظيع ، وشدت على حلقه ، أغلقت فمه ، فمنعته من أن ومن الحديث .

واجتاحته رغبة في الهروب شديدة لا تحتمل ، رغبة أن يترك هذا الذي لم يعد بيته ، وهؤلاء الناس الذين لم يعد يرتبط بهم إلا برباط محسوس . وأراد أن يخرج حالاً إلى أي مكان كان ، وقد شعر أن الأمر انزاع وأنه لم يعد يستطيع البقاء بقرينهم ، وأنه يعدبهم دائماً رغماً عنه ، بحسب ، وأنهم يسببون له ألماً لا ينقطع ، وعذاباً لا يطاق .

كان جان يتكلم ، يتحدث مع رولاند ، من غير أن يصغي له .

بيير ، من غير أن يسمع ، واعتقد أنه يحس مع ذلك نية ما في صوت أخيه .
قال جان :

— ستكون هذه فيما يبدو السفينة الأجمل في أسطولهم . يتحدثون
عن ستة آلاف وخمسمئة برميل . وستقوم برحلتها الأولى في الشهر القادم .
فقال رولاند مندهشاً :

— سريعاً ! كنت أعتقد أنها لن تبحر أبداً هذا الصيف .

— إنهم يستعجلون أعمالهم بحماس ، لكي يكون العبور البحري
الأول قبل الخريف .

مررت هذا الصباح بمكتب الشركة ، وتحدثت مع واحد من
الأعضاء .

— ها ! ها ! ومن هو ؟

— السيد مارشاند ، الصديق الحميم للرئيس ومجلس الإدارة .

— عجباً ، أنت تعرفه ؟

— نعم ، وكنت أطلب منه خدمة صغيرة .

— آه ! إذن ستمكثني من زيارة السفينة « اللورين » عندما سترسو

في الميناء ، أليس كذلك ؟

— بالتأكيد، وهذا أمر سهل جداً!

وكان جان يبدو متردداً، يبحث عن جملة ضائعة، يواصل البحث عن كلام افتقده ينقله إلى موضوعه. واستأنف يقول:

— وعلى الإجمال، فالحياة في السفينة مرضية جداً، أن يكون المرء على عابرات الأطلسي هذه، سيمضي أكثر من نصف أشهر السنة على اليابسة في مدينتين رائعتين، نيويورك والهاقر، ويبقى في البحر مع الناس الظرفاء، ويستطيع كذلك أن يطلع على معارف مستحبة جداً، مفيدة جداً، تلزمه فيما بعد، نعم مفيدة جداً بين المسافرين. تصور أن القبطان في اقتصاده بالفحم ربما يحصل على ٢٥ ألف فرنك في السنة إن لم يكن أكثر.

ونطق رولاند بكلمة «عجيب!» متبوعة بتصفية تشهد باحترام عميق للمبلغ والقبطان. واستأنف جان يقول:

— وأمين حسابات السفينة يمكن أن يصيب عشرة آلاف، والطبيب خمسة آلاف من العلاج الثابت، مع السكن والطعام والإضاءة والتدفئة والخدمة.. إلخ، وهذا يعادل عشرة آلاف على الأقل، وهو أمر جميل جداً.

ورفع بير عينية فالتقتا بعيني أخيه ففهمه، وعندئذ، وبعد تردد سأل:

— وهل يصعب الحصول على مكان للطبيب على عابرة الأطلسي؟

— نعم ، ولا . كل شيء يتعلق بالظروف والدعم .

وكان صمت طويل ، ثم استأنف الطبيب :

— أفي الشهر القادم ستتطلق « اللورين » ؟

— نعم ، في السابع منه .

وسكتا ، كان بير يفكر : إذا استطاع أن يبحر طيباً على السفينة ، فسيكون هذا حلاً بالتأكيد ، وفيما بعد سيرى ما سيفعل ، ربما سيتركها ، وقبل هذا يكسب لقمته دون أن يطلب شيئاً من أسرته ، لقد اضطر أول أمس أن يبيع ساعته لأنه لم يعد يمد يده لأمه ! وليس لديه أي دخل غير هذا ، وليس لديه من وسيلة ليأكل رغيفاً آخر غير رغيف البيت الذي تتعذر فيه السكنى . ويصعب عليه النوم في سرير آخر ، تحت سقف آخر ، فقال متردداً قليلاً :

— لو أستطيع لخرجت على السفينة راغباً في العمل بها .

فسأل جان :

— ولماذا لا تستطيع ؟

— لأنني لا أعرف أحداً في « شركة عبر الأطلنطي » .

وبقي رولاند مبهوئاً ، وقال :

— وكل مشاريعك الجميلة للنجاح ، ماذا سيصير بها ؟

فتمتم يبير :

— هناك أيام يجب على المرء أن يضحى بها ، ويعدل إلى الآمال الأفضل ، ومع ذلك فليس هذا إلا بداية وسيلة لجمع بضعة آلاف من الفرنكات ، من أجل تأمين المستقبل .

فقال الأب وقد اقتنع سريعاً :

— هذا حق ، خلال سنتين تستطيع أن تقتصد ستة آلاف فرنك أو سبعة ، توصلك بحسن الاستعمال إلى مجال بعيد . كيف ترين يا لويز ؟

فأجابت بصوت خافت مبهم :

— أعتقد أن يبير على صواب .

فصاح رولاند .

— ولكنني سأذهب لأنكلم مع السيد بولان الذي أعرفه جيداً ، فهو قاضٍ في المحكمة التجارية ، وهو منصرف إلى أعمال الشركة . وعندى كذلك السيد لوينان مجهّز السفن ، صديق أحد نواب الرئيس الحميم .

وسأل جان أخاه :

— أتريد أن أستشف ، اليوم نوايا السيد ماريشاند بالذات ؟

— نعم، بكل سرور .

واستأنف بيير يقول بعد أن فكر بضع لحظات :

— ربما تكون خير وسيلة أيضاً أن أكتب إلى أساتذتي في كلية الطب الذين كانوا يكتنون لي تقديراً عظيماً ، فالشركة تختار غالباً الأفراد العاديين ، وستدفع رسائل الأساتذة الحارة ، ماروسيل ، فلاش ، رموسو ، بوريكل ، ستدفع القضية في وقت تكون فيه أفضل من كل تزكية مربية . ويكفي أن يقدم هذه الرسائل صديقك السيد ماريشاند إلى مجلس الإدارة .

واستحسن جان هذا كل الاستحسان فقال :

— فكرتك رائعة ، رائعة !

وتبسم مطمئناً سعيداً على وجه التقريب ، واثقاً من النجاح ، عاجزاً عن الاكتئاب لمدة طويلة ، وقال :

— ستكتب لهم هذا اليوم بالذات ؟

— الساعة ، حالاً سأكتب . لن أتناول القهوة ، فأنا متوتر الأعصاب .

ثم قام وخرج ، وعندئذ استدار جان نحو أمه قائلاً :

— وأنت يا أمي ، ماذا تريدان أن تفعلين ؟

— لا شيء .. لا أدري .

أتريدين أن تأتي معي لزيارة السيدة روزميلي ؟

— ولكن .. نعم .. نعم .

— أتعلمين .. لا بد أن أذهب إليها اليوم .

— نعم .. نعم .. هذا صحيح .

وسأل رولاند ، مع أنه معتاد ألا يفهم ما يتحدثون به أمامه :

— ولماذا لا بد ؟

— لأنني وعدتها أن أذهب إليها .

— آه ! حسن جداً . هذا مختلف إذن .

وشرع يحشو غليوفه ، بينما كانت الأم والابن يصعدان الدرج ليأخذا قبعتيهما .

وعندما كانا في الطريق سأها جان :

— أتريدين أن تأخذي ذراعي يا أمي ؟

وما كان يقدم لها ذراعه أبداً ، لأنهما كانا قد اعتادا أن يمشيا جنباً إلى جنب ، فرضيت واستندت عليه . وسكتا بعض الوقت ثم قال لها :

— أترين بيمر موافقاً تماماً على الذهاب ؟

فتمتعت قائلة :

— الولد المسكين !

— لماذا ، الولد المسكين ؟ لن يكون تعيشاً أبداً في سفينة اللورين .

— لا .. أنا أعلم ذلك ، ولكنني أفكر في أشياء كثيرة .

وفكرت طويلاً وهي تمشي مخفوضة الرأس على خطوات ابنها نفسها ،
ثم قالت ، وبذلك الصوت الغريب الذي يتخذ في لحظات لإتمام فكرة طويلة
سريّة :

— إنها قبيحة ، الحياة ! وإن كانت في مرة جميلة فهي جانية على من
يستسلم لها فيدفع الثمن غالباً فيما بعد .

فقال بصوت خفيض جداً :

— لا تعودني إلى الكلام عن هذا يا أمي .

— وهل هذا ممكن ؟ إنني أفكر به دائماً .

— ستنسين .

وسكتت ، ثم قالت بأسف عميق :

— آه! كم كنت سأكون سعيدة لو تزوجت رجلاً آخر!

وحنقت على رولاند، وألقت مسؤولية خطيئتها كلها، وشقائها كله على قبحه، على بهيميته، على بلاهته، على ثقل روحه، على مظهر شخصه المتفل، هذا هو السبب، ابتذاله أوجب عليها أن تحدعه، وأن تقطع أمل أحد ابنيه، وتعترف للآخر الاعتراف المؤلم الشديد الإيلام، الاعتراف الذي نرف دم قلبها، قلب الأم. وتمت قاتلة:

— ما أقبح أن تتزوج الفتاة رجلاً كزوجي.

ولم يجب جان. كان يفكر بمن اعتقد أنه ابنه حتى الآن، ربما كانت الفكرة المبهمة التي حملها منذ وقت طويل عن تفاهة أبيه وسخرية أخيه المستمرة منه وعدم مبالاة الآخرين المستخفة به، وحتى عن احتقار الخادمة له، ربما كان ذلك كله قد حضر روحه لتلقى اعتراف أمه الفظيع. لقد كلفه ذلك على الأقل أن يكون ابن رجل آخر، ولكن لم يبد ردة فعل بعد الزلزلة العنيفة لصدمة البارحة، ردة فعل من ثورة، من نقمة، من غضب تفزع منه السيدة رولاند، فلأنه كان منذ وقت طويل يتألم حيز اللاشعور فيه من كونه ولد هذا الرجل الثقيل الظل، الساذج.

ووصلا منزل السيدة روزميلي. كانت تسكن في شارع سانت أدريس في الطابق الثاني من عمارة ضخمة تخصها. تطل نوافذها على ميناء الهافر كله.

وعندما رأت المرأة السيدة رولاند التي دخلت أولاً فتحت لها ذراعها وعانقتها عوضاً أن تمدّ إليها يدها كما كانت تفعل دائماً، ذلك لأنها خمنت سبب قدومها.

كان أثاث الصالة مخملياً لا تزال عليه أغطية، وعلقت على الجدران الملابس بورق مزهر أربع صور محفورة كان اشتراها زوجها القبطان. وهي تمثل مشاهد بحرية عاطفية؛ في الأولى امرأة صياد، تلوح على الشاطئ بمندبل، بينما اختفى في الأفق الشراع الذي حمل زوجها. وفي الثانية المرأة نفسها جاثية على ركبتها على الشاطئ نفسه تلوي ذراعها، وهي تنظر إلى بعيد تحت السماء الساطعة، وعلى بحر ذي أمواج غير واقعية مركب زوجها يشفي على الغرق. وتمثل الصورتان الأخيرتان مشهدين متشابهين في طبقة اجتماعية عليا، امرأة شابة شقراء تحلم، قد أسندت مرفقها على طرف سفينة كبيرة مبحرة تنظر بعين متحيرة بللتها الدموع إلى الشاطئ الذي صار بعيداً عنها. من الذي تركته وراءها؟ ثم المرأة الشابة ذاتها جالسة على أريكة قرب نافذة مفتوحة على المحيط مغمى عليها، وقد سقطت رسالة من يدها على السجادة. مات إذن، يا للتعاسة! كان الزوار يتأثرون بوجه عام، وينجذبون بالحزن المبتدل لهذين الموضوعين الشفافين الشعريين، وكانوا يفهموهما للتو بدون شرح ولا بحث، ويشفقون على المرأتين المسكيتين برغم أنهم لا يعرفون سبب كتابة المرأة المتميزة بينهما. ولكن الغموض عنه هو الذي كان يساعدهم على الخيال، ربما تكون فقدت خطيها! وكانت اللوحات الأربع

تجذب العين منذ الدخول، تجتلبها بقوة، وتحتجزها، كما يستولي عليها الافتتان .

ولم يتحول جان عنها إلا لأنه يأتي دائماً، يتأمل دائماً التعبيرات الأربعة للمرأتين اللتين تتشابهان كأختين . وبدا إحساس بالنظافة والاستقامة يشيع على الأخص من الرسم الواضح المجهود المعنى به، والمتميز على شكل النحت بذوق العصر، ومن الإطار الشديد اللمعان، مما يفخم الأثاث .

كانت الأرائك مرتبة بنظام لا يتغير، بعضها إلى الجدار، وبعضها الآخر حول المنضدة الصغيرة، والستائر البيضاء نظيفة ذات طيات مستقيمة جداً ومنظمة جداً، حتى لترغب النفس بتجعيدها قليلاً، وما من ذرة غبار على الناقوس الزجاجي، حيث وضعت ساعة مذهبة على النمط الإمبراطوري، على شكل نصف كرة أرضية يحملها أطلس وهو جاث على ركبته، وكانت تبدو ناضجة كبطيخة صفراء .

وعدلت المرأتان قليلاً، وهما قاعدتان من مكان كرسيهما المعتاد .
وسألت السيدة رولاند :

— ألم تخرجي اليوم ؟

— لا ، أقول لك ، إنني متعبة قليلاً .

وفي لون من الشكر لجان وأمه تكلمت عن كل المسرات التي حصلت عليها في الزهرة والصيد وقالت :

— هل تعلمان أنني أكلت هذا الصباح قريدساتي . كانت لذيدة .
إذا أردتما ، أعدنا تلك الزهرة مرة أخرى .

فقاطعها جان قائلاً :

— مارأيك أن نهي الزهرة الأولى قبل أن نقوم بأخرى غيرها ؟
— كيف ذلك ؟ يبدو لي أنها انتهت .

— أوه ! سيدتي . لقد اصطدت من جهتي أنا في صخرة سان جوان
صيداً أريد أن أحمله إلى بيتي .

فالتحذت هيئة ساذجة ماكرة . وقالت :

أنت ؟ ماذا إذن ؟ ماذا وجدت ؟

— امرأة ! لقد جفنا أنا وأمي نسألك إن هي لم تغتير رأيها هذا
الصباح .

فشرعت تبسم قائلة :

— لا ، ياسيد ، أنا لم أغتير رأيي ، أنا ..

وكان هو الذي مد يده مفتوحة عندئذ ، حيث أسقطت يدها في
حركة حيوية وحاسمة . وسأل :

— في أقرب وقت ممكن ، أليس كذلك ؟

— عندما تريد .

— ستة أسابيع .

— ليس لدي فكرة . مارأيك يا حماة الغد ؟

فأجابت السيدة رولاند بابتسامة سوداوية قليلاً :

— أوه ! أنا ، لا أفكر بشيء . أشكرك فقط لأنك رضيت بجان ،
لأنك ستجعلينه سعيداً جداً .

— سنفعل ما نستطيعه يا أمي لسعادتنا .

وللمرة الأولى بدت السيدة روزميلي عاطفية ، فقامت وأخذت بملء
ذراعيها السيدة رولاند وضممتها طويلاً كما تضم طفلاً ، وفي هذه الملاحظة
الجديدة ، نفخ التأثير القوي قلب المرأة المسكينة المريض . فلم تستطع أن
تعبّر عن مشاعرها . كان ذلك حزناً وعذباً في آن واحد . خسرت ابناً
كبيراً ، وارقد إليها مكانه بنت ، بنت كبيرة .

وعندما كانتا وجهاً لوجه على مقعديهما أمسكت كل منهما بيدي
صاحبتها وبقيتا هكذا تنظران إحداهما إلى الأخرى وهما تبتسمان ، بينما بدا
عليهما أنهما نسيتا جان قريباً .

ثم تحدثتا عن أشياء كثيرة يلزم التفكير بها من أجل هذا الزواج

المقبل . وعندما تقرر كل شيء، ونظم، تذكرت السيدة روزميلي فجأة شيئاً صغيراً، فسألت :

— لقد استشرتم السيد رولاند، أليس كذلك ؟

فغطى الاحمرار ذاته وجتتي الأم وابنها، وأجابت الأم :

— أوه ! لا .

ثم ترددت وهي تشعر أن الشرح ضروري، فاستأنفت تقول :

— إننا نفعل كل شيء، دون أن نقول له شيئاً، يكفي أن نعلمه ما قررنا .

فابتسمت السيدة روزميلي ولم تندهش قط، وحكمت على هذا أنه طبيعي إذ لأهمية للرجل .

وعندما كانت السيدة رولاند مع ابنها في الطريق قالت :

— لو نذهب إلى بيتك، فأنا أريد حقاً أن أرتاح .

. كانت تشعر وكأنها بلا مخبأ، بلا ملجأ، لأنها مرعوبة من بيتها .

دخلا بيت جان . ومنذ شعرت بالباب يفلق من خلفها أطلقت آهة كبيرة، كأن قفل الباب وضع فيها الطمانينة . وعوضاً أن تستريح كما

زعمت ، بدأت تفتح الخزائن لتحقيق من أكّدا س البياضات وعدد المناديل والجوارب .

غيرت النظام الموضوع ، لتبحث عن تنسيق أكثر انسجاماً يروق أكثر لعينها ، عين مدبرة البيت ، وعندما جهزت الأشياء على هواها ، وضعت المناشف والسرارهل الداخلية والقمصان على طاولتها الصغيرة الخاصة ، ووزعت البياضات كلها على ثلاثة صفوف رئيسة ، الألبسة الداخلية ، وشراشف البيت ، وأغطية الطاولة ، تراجعت لتأمل عملها ، وقالت :

— جان ، تعال إذن ، انظر كم هذا جميل !

قام ، وأعجب بما تفعل ، ليدخل إلى نفسها السعادة . وفجأة ، وبعدما قعد من جديد ، اقتربت من أريكته بقدم خفيفة ، ومن الخلف قبلته في عنقه ، من جهة يده اليمنى ، وضمته بيد واحدة وهي تضع على المدفأة شيئاً صغيراً مغلفاً في ورقة بيضاء كانت في يدها الأخرى . وسأل :

— ما هذا ؟

ولما لم تجب فهم . وعرف شكل الإطار فقال :

— ها تيبا !

لكنها تظاهرت أنها لم تسمع . واستدارت نحو الخزانة . قام ، أخذ

بحيوية بقية الرفات المؤلمة ، وذهب عبر المنزل يجمعها في درج مكتبه ، وأدار عليها القفل دورتين . ومسحت بطرف أصابعها دمة على طرف عينها ، ثم قالت بصوت مرتجف قليلاً :

— الآن ، سأرى إن ربيت الخادمة الجديدة المطبخ ، وبما أنها خرجت ، أستطيع أن أراقب كل شيء لأعرف .

قدّم السيد مارشاند إلى مجلس «شركة عبر الأطلنطي» رسائل الترقية المبعوثة من الأساتذة السادة ماروميل وريموسو وفلاش وبوريكل المكتوبة بعبارات غاية في الثناء على الطبيب بيير رولاند تلميذهم، ودعم الرسائل السيد بولان القاضي في المحكمة التجارية والسيد لوينان مجهز السفن المشهور والسيد ماريفال وكيل رئيس بلدية الهافر صديق الكابتن بوسير الخاص.

وصادف أن الشركة لم تعين طبيباً لسفينة اللورين بعد، وكان لبيرر حظ، فعين بعد بضعة أيام. وذات صباح عندما فرغ من هندامه قدمت له الخادمة جوزفين المغلف الذي حمل إليه خبر تعيينه. كان شعوره الأول شعور محكوم عليه بالأعدام خففوا حكمه، وشعر بألم يتضاءل قليلاً لفكرة الرحيل، للحياة الهادئة المتأرجحة في الماء المتموج، الشاردة، الهاربة..

إنه الآن في منزل أبيه غريب صامت متحفظ. وكان يشعر منذ تفلت السر الكريه، السر الذي كشفه لأخيه أن الارتباطات بالأسرة تقطعت.

وأزعجه الندم لأنه باح به لجان . حكم على نفسه أنه مقيت قدر سيء ، مع أن ذاك الكلام خفف عنه . لم تعد نظراته تلتقي بنظرات أمه أو نظرات أخيه . كانت عيونهما تأخذ من أجل أن تتجنبه حركة غير متوقعة ، حركة مخاتلة لعدو يخشى اللقاء . كان يتساءل دائماً : « ماذا استطاعت أن تقول لجان ؟ هل اعترفت أم هل جحدت ؟ ماذا يعتقد أخي ؟ ما يظن بها ؟ ما يظن بي ؟ » لم يحزر ، وأصابه سخط . ومع ذلك فلم يعد يتكلم معهما تقريباً إلا بحضور رولاند ، ليتقي أسئلته .

عندما تسلم الرسالة التي تخبره بتعيينه ، قدمها في اليوم نفسه إلى أسرته ، فصفق أبوه الذي كان شديد الميل للفرح ، وفرح بكل شيء ، وقال جان بلهجة جادة ، في حين امتلأت روحه بالبهجة :

— أهنتك من كل قلبي ، لأنني أعلم أن هناك منافسين كثيرين ، ولا شك أنك نجحت برسائل أساتذتك .

وقبلت أمه رأسه وهي تتمتع :

— أنا سعيدة جداً لأنك نجحت .

وبعد الغداء ذهب إلى مكتب الشركة ليستفهم عن أشياء كثيرة ، وسأل عن اسم طبيب السفينة بيكاردي التي سترحل في الغد ، ليعرف منه تفاصيل الحياة الجديدة كلها ، والظروف الخاصة التي سيواجهها .

كان الدكتور بيرت على الساحل ، فذهب بيير إليه استقبله في غرفة

صغيرة بالسفينة، شاب أشقر اللحية يشبه أخاه. وتحدثنا طويلاً. كان يسمع من الأعماق صوت بعيد، اضطراب عظيم مختلط ومستمر حيث تسقط البضائع لتتكسد في قعر السفينة، وهي تختلط بالخطوات وبالأصوات وبحركة الرافعات المحملة بالصناديق وبصفارات رؤساء العمال وضوضاء السلاسل المسحوبة أو الملفوفة على آلات رفع الأثقال بنفسها البخاري المبحوح التي تهز جسم السفينة الضخمة كله.

وبعد أن ترك بير زميله وصار في الطريق، سقط عليه حزن جديد، فغلغه كالضباب الذي يجري على البحر، قادماً من طرف العالم، يحمل في سماكته غير المحسوسة شيئاً من السرية والفحش كنفثة الطاعون، جاءت من أراضٍ شريفة بعيدة.

لم يشعر قط في ساعات ألمه الأكبر أنه غرق هكذا في بالوعة من البؤس. فقد انتهى تمزقه الأخير، ولم يعد يربطه بأسرته شيء ما. لم يجرب بعد كيف تقتلع من قلبه أصول حنانه كلها، لم يجرب بعد كيف يتضايق كلب شارد أمسكوه، لم يبق له ألم أخلاقي يعذبه، بل أمسى كحيوان أحس بالدعر حيناً لم يجد مخبأً، وشعر لضياحه بقلق غريزي، لم يعد لديه سقف. سوف يدمه المطر والريح والعاصفة وكل القوى العنيفة في الدنيا.

عندما وضع رجله على هذه السفينة، وعندما دخل إلى هذه الغرفة الصغيرة المتأرجحة على الموج، ثار فيه جسم من ينام دائماً على سرير ساكن هادئ، ثار ضد اختلال الهدوء الذي سيرافقه، في كل غد من

المستقبل . وهذا الجسم يشعر الآن أنه محمي بجدار صلب غائص في الأرض التي تمسكه ، ويحس بتحقيق راحة الجسد في المكان نفسه ، وتحت سقف يقاوم الريح ، فأصبح كل ما يحبه في المنزل الدافئ المغلق الذي يحميه ، أصبح خطراً والماء مستمراً . لم يعد هناك من أرض تحت الخطوات ، ولكنه بحر يتموج ، يزجر يتلع . ولم تبق حوله مسافة للنزهة ، للجري ، للضياع في الطرقات ولكنها بضعة أمتار من الألواح الخشبية للمشى كمحكوم عليه بين سجناء آخرين . لم تبق هناك أشجار ولا حدائق ولا طرقات ولا بيوت ، لا شيء إلا الماء والغيوم ، وسيشعر بلا انقطاع بالسفينة تتزعزع تحت أقدامه . ويجب عليه في أيام العاصفة أن يستند إلى الحواجز ، أن يتمسك بالأبواب ، أن يتعلق بحواف السرير الضيق لئلا يتدحرج على الأرض . سيستمع في الأيام الهادئة إلى ارتجاف مروحة السفينة الصاخبة ، ويحس بها تحمله في هروب مستمر منظم يثير الحنق .. ووجد نفسه محكوماً عليه بحياة الأشغال الشاقة المتشردة وحيداً ، لأن أمه استسلمت لمداغبة رجل .

ومضى إلى الأمام خائر القوى ، وفي قلبه سوداوية موحشة يحس بها المهاجرون عادة .

لم يعد يشعر في قلبه بالاحتقار المتعجرف للآخرين ، للناس المجهولين الذين يمرون أمامه ، بل برغبة حزينة في أن يتحدث معهم ، في أن يقول لهم : إنه سيترك فرنسا . في أن يصغوا إليه ويعزوه . كان ذلك في أعماق قلبه حاجة مخزية ومسكينة ، في أن يمدّ يده ، حاجة خجلى وقوية ، في أن يشعر أحد

ما بالألم لرحيله . وفكر بمارو شكو العجوز البولوني ، الوحيد الذي يحبه حباً
يكفي ليشعره بتأثر حقيقي وحاد ، فقرر أن يذهب ترواً ليراه .

عندما دخل إلى الدكان اتاب الصيدلي الذي كان يهرس مسحوقاً في
قعر هاون رخامي ، اثابته رجفة ضعيفة ، فترك عمله . وقال :

لم يعد أحد يراك أبداً ؟

فشرح الشاب أنه كان يسعى لقضايا متعددة ، دون أن يكشف له
عنها . وحلس وهو يسأل :

— حسناً ، هل الأعمال تسير ؟

فقال الصيدلي :

— إن الأعمال لا تسير . المنافسة رهيبة ، المرضى قليلون وفقراء جداً .
لا يمكن أن تباع في حي العمال هذا إلا الأدوية الرخيصة ، والأطباء فيه
لا يكتبون العلاجات النادرة المعقدة التي تكفل ربح ٥٠٠٪ وأنهى الرجل
كلامه قائلاً :

— إذا استمرت الحال على ذلك ثلاثة أشهر أخرى توجب أن أغلق
الدكان يا طيبسي العزيز ، وسأعمل قريباً في مسح الأحذية .

وشعر ببيير بقلبه يتقبض ، فقرر فجأة أن يحمل الضربة مادامت
لازمة فقال :

— أوه! أنا.. أنا.. لم أعد أستطيع مساعدتك، سأترك الهافر في بداية الشهر القادم.

وكان تأثير ماروفسكو شديداً، حتى إنه أبعد نظارته وقال:

— أنت.. أنت.. ماذا قلت؟

— قلت إنني سأذهب يا صديقي المسكين.

وظل المعجوز ذاهلاً، وهو يشعر باننيار أمله الأخير، وثار فجأة على الرجل الذي تبعه، الذي أحبه، الذي وثق به كثيراً، الذي تخلى عنه ببساطة. فتلجلج قائلاً:

— ولكنك لن تخونني بدورك. أنت؟

وأحس بيير بالشفقة إلى درجة غلبته معها رغبة في أن يعانقه وقال:

— ولكنني لم أخنك، لم أجد هنا عملاً، وسأذهب طيباً على إحدى سفن عابرات الأطلسي.

— أوه! سيد بيير! لقد وعدتني أن تساعدني على العيش!

— وما العمل! يجب أن أحيأ أنا نفسي. ليس لدي قرش من ثروة.

فردد ماروفسكو:

— هذا سيء ، هذا سيء ، الذي فعلته . لم يعد لي إلا الموت من الجوع . لعمرى إن هذه هي النهاية ، هذا سيء . أنت تتخلى عن عجوز فقير جاء ليتبعك ، هذا سيء .

وأراد بير أن يشرح ، أن يؤكد ، أن يعطي حججه ، أن يثبت أنه لم يكن يستطيع خلاف ما فعل ، فلم يصنع إليه البولوي التأثير على هذا الهروب ، وأنهى كلامه وهو يلتمح إلى الأحداث السياسية قائلاً :

أنت فرنسي كالآخرين ، أنتم لا تفنون بوعودكم .

وعندئذ قام بير مشمئزاً بدوره ، وقال بشيء من تعالٍ :

— أنت ظالم أيها الأب ماروفسكو . يجب أن تكون هناك أسباب قوية دفعنتني إلى ما أفعل ، ويجب أن تفهم أنت ذلك . إلى اللقاء . آمل أن أجذك أكثر تعقلاً .

خرج وهو يقول في نفسه : « وإذن ، ما من شخص يأسف لأجلي أسفاً مخلصاً » وبحث فكره ذاهباً إلى كل من عرفهم ، أو من كان يعرفهم ، فوجد وسط الوجوه العالقة في ذاكرته وجه فتاة المقهى التي كانت قد شككته بأمة . تردد وهو يحتفظ نحوها بمقد غريزي ، ثم قال لنفسه فجأة وهو يقرر : « كانت على حق مع كل ذلك » وتوجه في الطريق المؤدية إليها .

كان المقهى للمصادفة مملوءاً بالناس ، ومملوءاً أيضاً بالمدينين . كانوا من البورجوازيين والعمال ، فالיום يوم عيد ، كانوا ينادون ، يضحكون ،

يصيحون . ورب العمل نفسه يقوم بالخدمة راكضاً من طاولة إلى أخرى يحمل كؤوس الجعة الفارغة ويعود بها مملوءة بالرغوة .

وعندما وجد بيير مكاناً غير بعيد عن (الكونتوار) انتظر راجياً أن تراه العاملة وتعرفه . ولكنها مرت ، ومرت ثانية أمامه دونما نظرة من عين . كانت تسير بتقليل من ترنح لطيف ، وقدمها تخبان كفاءة تحت تنورتها . وانتهى الأمر إلى قرع الطاولة بقطعة نقد ، فبادرت قائلة :

— ماذا ترغب ياسيدي ؟

لم تنظر إليه ، كان ذهنها تاهماً في حساب المشروبات المقدمة للزبائن فقال :

— ما هذا ؟ أهكذا يُسلم الناس على أصدقائهم ؟

فثبتت عينيها عليه ، وقالت بصوت مستعجل :

— آه ! أهذا أنت . كيف حالك . ولكن ليس لدي وقت اليوم .
أجعة تريد ؟

— نعم ، كأس جعة .

وعندما حملته له استأنف يقول :

— جمعت لأودعك . فأنا راحل .

فأجابت بلا مبالاة:

— آه، باه؟ إلى أين ستذهب؟

— إلى أمريكا.

— يقال إنها بلاد جميلة.

ولا شيء زيادة. حقاً إنه أخرق جداً إذ يكلمها في مثل هذا اليوم،
وفي المقهى كثير من الناس!

وذهب بيير نحو البحر، ورأى حين وصوله إلى الرصيف الجانبى
مركب اللؤلؤة الذي كان يدخل الميناء حاملاً أباه والكابتن بوسير. كان
البحار باباغري يهدف، والرجل جالسان في المؤخرة يدخنان غليونيهما في
سعادة تامة، قال الطبيب في نفسه عندما رآهم يمرون: «ما أسعد بسطاء
العقول!».

جلس على أحد مقاعد كاسر الأمواج يحاول الاسترخاء في نعاس
كنعاس البهائم. وعندما رجع مساء إلى البيت قالت له أمه دون أن تجرؤ على
رفع عينها إليه:

— إنه يلزمك أشياء كثيرة للسفر، أنا متحيرة قليلاً، أوصيت لك
اليوم على غيارات داخلية، ومررت على الخياط من أجل الثياب. ولكن،
أحتاج إلى شيء آخر لا أعرفه؟

وفتح فمه ليقول «لا، ما من شيء» لكنه استدرك في نفسه ، وشعر أنه يجب أن يقبل بأدب وبلهجة هادئة جداً، فأجاب :

— لا أدري بعد، أنا، سأسأل الشركة .

واستعلم ، فكتبوا له قائمة بالأشياء الضرورية . ونظرت إليه أمه للمرة الأولى وهي تتسلمها من يده ، كان في أعماق عينيها تعبير ذليل جداً ، حلو جداً ، حزين جداً ، ضارع جداً ، تعبير الكلاب المسكينة المضروبة تطلب الأمان .

وفي الأول من تشرين الأول ، دخلت اللورين ميناء الهاقر قادمة من ميناء (سانت نازيز) لتغادر في السابع من الشهر نفسه قاصدة (نيويورك) ، ووجب على بيير رولاند أن يأخذ حاجات غرفته الصغيرة العائمة ، حيث ستحتبس حياته منذ الآن .

وفي الغد عندما كان خارجاً التقى بأمه على الدرج تنتظره ، وتمتمت بصوت لا يكاد يبين :

— ألا تريد أن أساعدك لتستقر على السفينة ؟

— لا ، شكراً ، انتهى كل شيء .

فتمتمت :

— إنني أرغب كثيراً أن أرى غرفتك الصغيرة .

— لا حاجة لذلك، فهي قبيحة جداً، وصغيرة جداً.

ومرّ وقد تركها منهوكة مستندة إلى الجدار شاحبة الوجه.

وخلال العشاء، لم يتحدث رولاند الذي زار اللورين في يوم وصولها نفسه إلا على هذه السفينة الرائعة، وكان شديد الاندهاش من أن زوجته لم تبد رغبة في معرفة أي شيء عن السفينة، مع أن ابنها سيبحر عليها.

ولم يُقم بيرر أبداً مع أسرته خلال الأيام التالية. كان ثائر الأعصاب، سريع الانفعال، قاسياً، وبدت كلماته اللفظة كأنها تسوط الجميع. ولكنه بدا فجأة عشية رحيله، متعبراً جداً، ناعماً جداً، وقال في الوقت الذي قُبِل فيه أبويه قبل أن يذهب لينام في السفينة للمرة الأولى:

— أسرف تأتون لوداعي غداً على السفينة؟

فصاح رولاند:

— طبعاً، طبعاً، بحق الله، أليس كذلك يا لوز؟

فقالت بصوت منخفض جداً:

— بالتأكيد.

فاستأنف بيرر يقول:

— ستغادر السفينة في تمام الحادية عشرة . يجب أن نكون هناك في التاسعة والنصف على الأكثر .

فصاح أبوه :

— ها ! إنها فكرة . سنذهب سريعاً لنبحر نحن في اللؤلؤة ، وأنت تغادر الميناء ، لنتظرك خارج الرصيف الجانبي ، ولتراك أيضاً مرة أخرى . أليس كذلك يا لوهز ؟

— بلى ، بالتأكيد .

فاستأنف رولاند يقول :

— وهذه الطريقة لاتضيعنا بين الجمهور الذي يزحم رصيف الميناء عادة عندما تغادره عابرات الأطلنطي . حين لا يمكن لأحد أن يعرف أقاربه في الزحام . مارأيك ؟

— طبعاً ، هذا حسن . موافق .

وبعد ساعة كان يتمدد في سريره الصغير سرير البحار الضيق الطويل كالتابوت . وبقي فيه وقتاً طويلاً ، عيناه مفتوحتان ، وهو يفكر بكل ما مر في حياته ، وعلى الأخص في روحه منذ شهرين . كان متعباً كشفرة مثلمة لفرط ماتالم هو وآلم الآخرين ، بألمه العدواني الانتقامي ، ولم يعد له شجاعة لإغاظة أحد . ولسبب ما ترك ثورته تذهب هكذا مثل حياته . كان

يشعر بالتعب الشديد من القتال ، من الهجوم ، من الكراهية ، من كل شيء لم يعد يستطيعه . وحاول أن يخدر قلبه بالنسيان ، كما يقع المرء في النوم . وبشكل غائم سمع حوله أصوات ضجيج جديدة للسفينة ، ضجيج خفيف ، لا يكاد يدرك بالحواس ، اختلطت في هدوء ليلة الميناء ولم يعد يشعر إلا بالآلم يشعر بها أصحاب الجروح وهي تلثم .

ونام نوماً عميقاً حتى أخرجه من استراحته حركة البحارة . طلع الصباح ، ووصل القطار إلى رصيف الميناء مصطحباً مسافري باريس ، وعندئذ تاه في وسط الناس المنشغلين بالقلق الذين يبحثون عن غرفهم ، يتنادون ، يتساءلون ، ويجيب بعضهم بعضاً كيئمة اتفق ، مع خوف بداية السفر . وبعد أن سلّم على القبطان وصافح زميله مندوب الميناء ، دخل إلى الصالة حيث كان بعض الانكليز نائمين في الزوايا .

كانت جدران الصالة من المرمر الأبيض المحاط بإطار من خيوط ذهبية تغوص بلا نهاية في مرآة ، منظور طاوالتها الطويلة يقع بين خطين غير محدودين من مقاعد دوارة مغطاة بمخمل أحمر . إنها جميلة هذه القاعة العائمة المتجولة ، حيث يأكل فيها معاً كل الأشخاص الأغنياء من مختلف القارات . ترفها موسر كتurf الفنادق الفخمة والمسارح والأماكن العامة . ذاك الترف المهيب والمبتذل الذي يرضي عيون أصحاب الملايين .

وذهب الطبيب لير على قسم السفينة المحصص لركاب الدرجة الثانية ، وعندما تذكر أن قطيعاً من المهاجرين قد دخل السفينة مساء أمس

نزل إلى بطنها، فزكم أنفه وهو داخل إلى هناك رائحة مغشية لناس فقراء قذرين،
نتانة لحم عار أكثر تنفيراً من أوبار البهائم أو أصوافهم. ولمح يبر في مخرج
من تحت الأرض مظلم منخفض كرواق المناجم، لمح مئآت من الرجال
والنساء والأطفال ممددين على الأرض. لم يميز الوجوه. ولكنه كان يرى بشكل
غامم الحشد الوسخ في الأسفل. جمهور البؤساء الذين قهرتهم الحياة،
المنهوكين، المسحوقين، الذاهبين مع نسائهم الهزيلات وأطفالهم الضعاف إلى
أرض مجهولة يرجون فيها ألا يموتوا من الجوع. وتملكت الطيب رغبة وهو
يفكر بأعمال هؤلاء المعدمين الماضية، بأعمالهم الضائعة، ببجودهم
العقيمة، بكفاحهم الضاري الذي يستأنفونه كل يوم بدون طائل، بطاقتهم
التي يذلونها، هؤلاء المعدمين الذين يذهبون ليبدؤوا من جديد أيضاً دون أن
يعلموا إلى أين، تملكته رغبة وهو يفكر بهذا أن يصيح بهم: «ولكن اغسلوا
أنفسكم بالماء أنتم وناؤكم وصغاركم». وشدت الشفقة على قلبه فمضى وهو
لا يستطيع احتمال منظرهم.

كان أبوه وأمه وأخوه والسيدة روزميلي ينتظرونه في غرفته الصغيرة.
قال لهم:

— الوقت مبكر جداً.

فأجابت السيدة رولاند بصوت راجف:

— أجل، لقد أردنا أن نكسب الوقت لنراك قليلاً.

ونظر إليها ، كانت في ثياب سوداء ، كما لو أنها في حداد ، ولح فجأة شعرها الذي كان لا يزال أشهب في الشهر الماضي قد صار الآن أبيض كله . قفز على سريره وقد آلمه جداً أن يجلس الأشخاص الأربعة في غرفته الصغيرة . وكان يُرى من الباب الذي ظل مفتوحاً ناس كثيرون كأولئك المارين في الطريق يوم عيد ، لأن أصدقاء المسافرين كلهم ، وحيشاً من الفضوليين البسطاء كانوا يتشرون في السفينة الواسعة . كانوا يتجولون في الممرات ، وفي الصالات ، وفي كل مكان . وكانت رؤوس تمتد داخل الحجرة ، بينما كانت أصوات تتعم في الخارج : « هذه شقة الطبيب » . وحينئذ أغلق بيبير الباب . ولكنه منذ شعر بنفسه حبساً مع جماعته تملكته رغبة في فتحه ، لأن اضطراب السفينة كان يغطي على ضيقهم وصمتهم . وأرادت السيدة روزميلي أن تتكلم فقالت :

— إن الهواء يأتي قليلاً من هذه النوافذ الصغيرة .

فأجاب بيبير :

— هذه كوة .

وأشار إلى سماكتها التي تكسب الزجاج قدرة على مقاومة الصدمات العنيفة ثم شرح باستفاضة نظام الإغلاق . وسأل رولاند بدوره :

— أليذك هنا صيدلية ؟

ففتح الطبيب خزانه ، وأراه مكتبة قوارير ، تحمل أسماء لاتينية على

مربعات من الورق الأبيض. وأخذ منها قارورة ليقراً خصائص المادة التي تحتويها، ثم تناول أخرى ثم ثالثة، وألقى محاضرة حقيقية عن العلاجات، بدا على الآخرين أنهم يستمعون إليها باهتمام كبير. وردد رولاند وهو يحرك رأسه:

— ما أشد فائدة هذا!

وطرق الباب بلطف، فصاح بيير:

— ادخل.

وظهر الكابتن بوسير، وقال وهو يمدّ يده:

— جئت متأخراً، لأنني ما أردت أن أضايحكم في جلستكم العاطفية.

واضطر أن يجلس على السرير أيضاً، وخيم الصمت من جديد. ولكن الكابتن أعار أذنه فجأة، فقد وصلت إليه أوامر عبر الحاجز، فأعلن:

— إنه وقت ذهابنا، إذا أردنا أن نبحر باللؤلؤة لنراك أيضاً في المخرج ولنقول لك وداعاً في عرض البحر.

كان الأب رولاند يرغب في ذلك كثيراً لكي يثير بلا شك مسافري سفينة اللورين. فقام مسرعاً وقال:

— هيا، وداعاً يا بني.

وقبل بيير من سؤاليه ثم فتح الباب . ولم تتحرك السيدة رولاند ،
بقيت وعيونها خفيضة ، ووجهها شاحب ، فمس زوجها ذراعها قائلاً :

— هيا ، فلنعتجل ، ليس لدينا من دقيقة نضيعها .

فقامت ، وخطت نحو ابنتها ، ومدت له خدين كالشمع الأبيض ،
واحداً بعد الآخر ، فقبلها دون أن يقول كلمة . ثم شدَّ على يدي السيدة
روزميلي ويدي أخيه وهو يسأله :

— متى سيكون زواجك ؟

— لا أدري بعد بالضبط . سنجعله يتوافق مع قدومك .

وأخيراً خرج الجميع كلهم من الغرفة وصعدوا إلى الجسر المزدهم
بالناس والحمالين والبحارة .

وشعر البخار في بطن السفينة الضخمة التي بدت تهتز من نفاد
الصبر .

وقال رولاند المستعجل دائماً :

— الوداع .

فرد بيير وهو واقف على حافة واحد من الجسور الخشبية الصغيرة
التي تصل اللورين بالرصيف :

— الوداع .

وصافح من جديد الجميع كلهم . وابتعدت أسرته . وكان الأب يصيح :

— سرعة ، بسرعة ، إلى العربة !

كانت عربة في انتظارهم ، لتقودهم إلى مقدمة الميناء حيث باهاغري قد أعد مركب اللؤلؤة جاهزاً تماماً ليتطلق في عرض البحر . ولم تكن هناك نسمة من هواء ، فقد كان يوماً من أيام الخريف الجافة الهادئة والبحر فيه مهذب يبدو بارداً وقاسياً كالفلواذ .

أمسك جان مجدافاً ، ووضع البحار المجداف الآخر على الجانب ، وشرعا بالتجديف . وكان على كاسر الأمواج ، وعلى رصيفي الميناء الجانبيين ، وحتى على حاجز الفرانيت جمهور لا يحصى ، جمهور مضطرب صاخب ، وقف ينتظر اللورين . ومرت اللؤلؤة بين هاتين الموجتين من الناس ، وسارت سريعاً خارج الميناء .

قعد الكابتن بوسير بين المرأتين ، وأمسك الحاجز ، وكان يقول :

— سترون أننا سنكون في طريقها قريباً .

وجذّف المجدفان بكل قوتهما ليذهبا إلى أبعد مدى ممكن . وفجأة صاح رولاند :

— هاهي ذي، إنني ألح صارها ومدختها . إنها تخرج من حوض
الميناء .

فردد بوسير :

— تشجعا أيها الولدان .

وأخذت السيدة رولاند منديلها من جيبها ووضعت على عينيها . وكان
رولاند واقفاً بثبات عند السارية وأعلن :

— إنها تتحرك في هذه اللحظة أمام الميناء .. لم تعد تتحرك .. إنها
تعود إلى الحركة .. إنها اضطرت أن تأخذ سفينة تجرها .. إنها تسير .. براثو !
إنها تدخل بين الرصيفين الجانبيين .. هل تسمعون الجمهور الذي يصيح ..
براثو ! .. هذه سفينة نبتون تجرها .. إنني أشاهد مقدمتها الآن . هاهي
ذي .. هاهي ذي .. يا إلهي ، ماهذه السفينة ! يا إلهي ! انظروا إذن ! ..
والتفتت السيدة روزميلي وبوسير ، وانقطع الرجلان عن التجديف ، وكانت
السيدة رولاند الوحيدة التي لم تتحرك .

كانت السفينة الواسعة المسحوبة بمركب الجمر القوي الذي ظهر
أمامها بهيئة الدودة ، تخرج ببطء وفخامة من المرفأ . وكان شعب الماطر
متكدساً على الأرصفة وعلى الشاطئ وعلى النوافذ ، وقد حمله فجأة حماس
وطني فجعل يصيح : « فلتحيا اللورين ! » وهو يهتف ويصفق لهذا الرحيل
الرائع ، لولادة هذه المدينة البحرية الكبيرة التي وهبت البحر أجمل بناءها ،

وشعرت بالحرية أخيراً عندما جاوزت الممر الضيق المغلق بين جداري
الغرانيت . وتخلت عن السفينة التي تجرها ، ومضت وحدها كفول ضخم
يجري على الماء . وكان رولاند يصيح على الدوام :

— هاهي ذي .. هاهي ذي ..! إنها قادمة إلينا على استقامة .

وكان بوسير يردد متألّفاً :

— ماذا وعدتكم ، هل عرفت طريقها ؟

وقال جان لأمه بصوت منخفض جداً :

— انظري يا أمي ، إنها تقترب .

وكشفت السيدة رولاند عينيها ، عينيها اللتين أعمتهما الدموع .
ووصلت اللورين مندفعة بكل سرعتها منذ خروجها من المرفأ ، في هذا
الطقس الجميل الصباحي الهادئ . وأعلن بوسير ومنظاره موجّه عليها :

— انتبهوا ! السيد بيير في المؤخرة وحده ، واضح تماماً ، انتبهوا !

ومرت السفينة عالية كجبل ، سريعة كقطار فكادت أن تمسّ
اللؤلؤة . ومدت السيدة رولاند ذراعها نحوه تائهة مخبولة ، ورأت ابنها ، ابنها
بيير ، وقد ارتدى قبعته ذات الشرائط ، وقذف لها بيديه الاثنتين قبلات
الوداع .

ولكنه كان يذهب ، يهرب ، يختفي ، يصبح الآن صغيراً جداً ،

يمحي مثل بقعة دقيقة جداً على بناء ضخـم . وكانت تجهد أيضاً لتعرفه ، ولم تعد تميزه . وأخذ جان يدها قائلاً :

— هل شاهدت ؟

— نعم ، كم هو طيب !

وعادوا نحو المدينة . وصرح رولاند بيقين متحمس :

— يا للجنة ! هذا ذهب سريعاً .

وكانت السفينة في الحقيقة تصفر من لحظة لأخرى كما لو كانت تدوب في المحيط . واستدارت السيدة رولاند نحوها تنظر إليها وهي تغوص في الأفق نحو أرض مجهولة في طرف آخر من العالم . فوق هذه السفينة التي لا يستطيع شيء أن يقفها ، فوق هذه السفينة التي لم تعد تلمحها ، كان ابنها ، ابنها المسكين ، وبدا لها أن نصف قلبها قد ذهب معه ، وبدا لها أيضاً أن حياتها قد انتهت ، وبدا لها كذلك أنها لن تراه قط . وسأل زوجها :

— ولماذا تبكين مادام سيرجع قبل شهر .

فتلعثمت قائلة :

— لا أدري ، أنا أبكي لأنني أنألم .

وعندما عادوا إلى اليايسة تركهم بوسير حالاً ليذهب إلى الغداء عند صديق له . ومضى جان في المقدمة مع السيدة روزميلي فقال رولاند لزوجته :

— إن ابنا جان ذو هيئة جميلة في أحواله كلها .

فأجابت الأم :

— نعم .

وبما أن نفسها كانت معكرة جداً فلم تفكر بما تقول وأضافت :

— إنني شديدة الابهاج لأنه سيتزوج السيدة روزميلي .

فاندشم الرجل الساذج وقال :

— آه ، ياه ! كيف ذلك ؟ سيتزوج السيدة روزميلي .

— طبعاً ، كنا نفكر أن نسألك رأيك اليوم بالذات .

— عجباً ! عجباً ! هل مصى على هذا الأمر مدة طويلة ؟

— أوه ! لا . منذ بضعة أيام فقط . كان جان يريد أن يثق أنها تقبل به قبل أن يستشيرك .

ففرح رولاند يديه قائلاً :

— حسن جداً ، حسن جداً ، تمام . وأنا موافق كل الموافقة .

وعندما أشرفوا على مغادرة رصيف الميناء ودخلوا في شارع فرانسوا

الأول استدارت زوجته مرة أخرى لتلقي نظرة أخيرة على البحر البعيد ولكنها لم تر إلا دخاناً قليلاً رمادياً بعيداً جداً، بعيداً جداً بدا كقليل من ضباب .

بيير وجان = PIERRE ET JEAN : رواية / تأليف غي دوموناسان ؛ ترجمة نزار أمانة ،
بول كواتلان — ط. ١. — دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٩. — ٢٢٨ ص. ١٨٤ سم

١ — ٤٨٣ ف م و ب ب ٢ — العنوان ٣ — موناسان

٤ — أباطة ٥ — كواتلان

مكتبة الأسد

رقم الإيداع — ١٩٨٩/٦/٩٧٨

رقم الإصدار ٤٤٤

